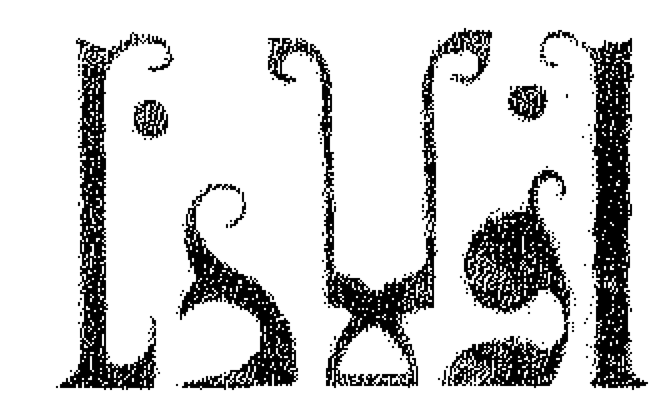


الربان بلود

بقلم: عادل الغضبان

دار المعارف

Bibliotheca Alexandrina
0018117

الربان بلود

أولادنا

١٨

الربان بلود

بقلم: عادل الغضبان

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

وقف الطّبيب « بلود » أمام النّافذة يسقى آنية الأزهار ، وكانت نظراته موزّعة بين رياحينه وأزهاره ، وبين الجموع الزاخرة التى تمرّ بمنزله فى طريقها إلى قصر « فيلد » .

وكانت تلك الجماهير الثّائرة المتحمّسة ، مسلّحة بمختلف أنواع السّلاح ، فمن سيوفٍ إلى عصىّ إلى رماح إلى فؤوس ، وكان كلّ من أولئك المسلّحين مابين حائك وصانع ونجّار وبنّاء وبدّال ، قد انضمّ إلى حركة الثّورة إلاّ المرضى والضّعاف أو الذين عدّهم إخوانهم خوَنة جُبَناء .

رأى الطّبيب « بلود » هؤلاء الناس الرّاكضين المسرعين فقال فى نفسه :

— « إنّهم يسعَوْن إلى هلاكهم ! »

وكان طبيبنا « بلود » هذا ، قد قرأ أمْس المنشورَ الذىأذاعه الدّوق « مونماوث » الابن غير الشرعىّ للملك « شارل الثّانى» مطالباً فيه بعرش أبيه ، ذلك العرش الذى استولى عليه « جاك الثانى» شقيق الملك المتوفَّى واستَوى عليه . وكان يعرف كذلك أن الدّوق «مونماوث» ينْوى أن يُهاجم فى تلك اللّيلة جيش الملك بهؤلاء الناس الثّائرين المتمرّدين ، فما وَسِعَه إلا أن يرثى لهم ويندب مصيرهم .

والطّبيب «بلود» كان من القوّة والبأس والإجادة فى مُلاعبة السّلاح بمقام عظيم ، ولكنّه كان متعجرفاً خامدَ الحماسة ، لا يندفع فى سبيل الدفاع عن الحق والحرّية والدين ، إلى ما تندفعُ إليه الجماهير دون تبصُّرٍ ولا رويّةٍ .

ولمَّا فرغ من سقْىِ الأزهار ، رفع رأسه وهَمَّ بإغلاق النافذة ، فوقع بصرُه على الأختين «بت» القاطنتين فى المنزل المقابلِ لمنزله ، فرآهما تَحدِجانه بنظرات الزّراية والاحتقار ، فابتسم وانْحَنَى مسلِّماً ، وفَهِمَ أنَّهما تلومانه صامتتين ، على أنَّه تخلَّف عن رَكْبِ الثورة ، وهو الرّجل الشّاب القوىّ المتمرّس بحمْل السّلاح .

أغْلقَ الطبيب النّافذة ، ورجع عنها غيرَ حافل بتلك النَّظرات ، فرأى مدبّرة المنزل قد أوقدت الشموع فى الغرفة ، وبدأت تُعِدّ المائدة لطعام

العشاء ، فقال بصوت عال :

— « إنّ هاتين الببّغاويّن تنظران إلىّ شزْراً ؟! »

قال هذا بصوت من تعوّد الأمر والنهى ، على أنّ لهجته الإرلندية الحلوة الخفيفة ، قد رقّقت قليلاً من قسْوة ذلك الصّوت . . .

كان « بلود » ابناً لطبيب إرلندى وأمّ إنجليزية ، وكان أبوه قد قرّر له أن يدرس الطب ، فلمّا أكمل دراسته ، ونال الشهادة وهو فى العشرين من عمره ، كانت أمّه قد توفّيت منذ عدّة سنوات ، ثم لحق بها أبوه بعد أشهر ثلاثة من تخرّج الفتى وإتمام دراسته .

تسلّم «بلود» ميراثه ، وكان عدّة مئات من الجنيهات ، فاستسلم إلى طبيعته المغامرة ، وقاده حبّه للبحر إلى أن ينتظم فى خدمة الهولنديّين ، وكانوا إذ ذاك فى حرب طاحنة مع الفرنسيين ، فاشترك فى المعارك البحرية التى نشبت بين الفريقين .

وبعد أن عقد الصّلح بين الدّولتين ، اكتنف حياة « بلود » شىء من الغموض فما عُرِفَ عنه إلا أنه قضى سنتين فى سجن من سجون إسبانيا..

وعندما بلغ الثانية والثلاثين من العمر ، خمدت فيه حماسته المغامرة ، ووضع عصا التّسْيار فى إنجلترا بلد أمّه ، وقرّر أن يعيش فيه .

هبط إنجلترا فى شهر يناير سنة ١٦٨٥ وهو صاحب ثروة متواضعة ، وعاش فى لندن يزاول مهنة الطبّ ، حتى كانت تلك الليلة من شهر يونيو

وقد التهبت الصدور بنيران الثورة ، ومشى فيها الدوق « مونماوث » على رأس الثوار ، وشنّ الهجوم على جيش الملك .

ولم يكترث « بلود » للثورة ، فأوى إلى فراشه مبكراً فى تلك الليلة ، ونامَ نوماً عميقاً لم يوقظه منه دويُّ المدافع ، وإنما أيقظه فى نحو الساعة الرابعة من الصباح ، طرقٌ عنيفٌ على باب منزله .

خفَّ « بلود » إلى الباب ففتحه ، فرأى شاباً فى ثياب ممزّقة وهو يلهثُ من التعب ، وعرف فيه نسيب الأختين « پت » فقال « بلود » فى صوتٍ هادئٍ رزين :

— « تمهّلْ يا فتى وأخبرنى ماذا تريد ؟ »

فقال الشابّ وهو لا يزال يلهث :

— « "اللورد جلدوى" جريحٌ جرحاً بالغاً ، وهو فى مزرعةٍ قريبةٍ من هنا وقد أرسلنى أستدعيك إليه . . . فتعال يا سيّدى أسرع . . . . أسرع . . . . »

وساء « بلود » أن يعلم ذلك النبأ ، فاللورد الجريح كان قد عطف عليه ورعاه منذ نزل بإنجلترا ، فلا بد أن أن يسارع إلى نجدته ومداواته ، والوفاء ببعض ماله من دينٍ عليه ، وإن يكن ذلك اللورد من أشدّ أنصارِ الدّوق « مونماوث » حماسةً وإخلاصاً .

واستمهل « بلود » الشابّ قليلاً ، فلبس ثيابه ، وزوّد مدبّرة منزله

بالأوامر ، وأخذ حقيبته ثم خرج من المنزل . وكان الشابّ قد سبقه إلى الباب ، فرآه قد أحاطت به نساءُ الحيّ ، وأخذت الأسئلة تنهال عليه ، فعلم « بلود » من ذلك الجزع المرتسم على الوجوه ، أنّ الدّوق « مونماوث » قد خسر المعركة .

وقفز الشابّ إلى جواده ، وأردَفَ الطبيب وراءه ، وأعمل قدميه فى شاكلتى الجواد ، ففسح الجمهورُ لهما الطريق ، وطار الجواد يحمل الطبيب « بلود » إلى عالم جديد من الأحداث والمغامرات . . .

كان « بلود » فى أثناء سيره إلى اللورد الجريح ، يشاهد بعض الفلول من جيش الثوّار تجرى عائدةً إلى المدينة ، وتلتفت إلى الوراء من حين إلى حين لتطمئن إلى أن جنود الملك لا تتعقبها . . .

وبعد قليل وصل « بلود » إلى الجريح ، وحدّق فيه طويلاً ، ورثى لذلك الفتى النبيل الذى كاد يفقد الحياة فى سبيل رجل أحمقَ مُغامر ، ثم أقبل على الجريح يفحصه فحصاً دقيقاً ، فلما انتهى من فحصه ، سقاه بعض الشّراب المنعش وأخذ يضمّد له الجرح .

وبينما هو منكبٌّ على الجريح ، سُمع فى الخارج وَقْعُ حوافرِ خيل ، فاضطرب كلُّ من كان فى الغرفة حول سرير المريض إلا « بلود » ، فقد استمرّ فى عمله وهو يقول للورد الجريح :

— « صبرك قليلاً ياسيّدى اللورد فأكادُ أفرَغُ من عملى . »

ودخل الغرفة على الأثر عشرةٌ من الجنود ، يتقدّمهم رئيسهم فقال لصاحب المزرعة وكفه على مقبضِ سيفه ! :

ـــ « أرى أنك تؤوى الثوّار فى مزرعتك . . . »

ثم التفت الضابط إلى جنوده وقال :

ـــ « اقبضوا على الثّائر الجريح . »

وكان « بلود » قد فرغ من تضميدِ الجرح ، فنهض ووقف بين الجريح والجنود وقال :

ـــ « إن الجريح فى حالٍ خطرة ولا يمكن نقله . »

فقال الضّابط متهكماً :

ـــ « أتظن يا هذا أننا سننقل هذا الثائر الجريح لنحسِّن حاله ؟ متى كانت حياةُ الثوّار على مثل هذه القيمة والنفاسة ؟ إن طريقنا مزدحمٌ بالمشانق ، وعندى من الأوامر ما يجعلنى أهدى لكلّ ثائرٍ حبلاً ألفّه حول عنقه . . . »

فصاح « بلود » قائلاً :

ـــ « أتشنقون الناس بغير محاكمة ؟ ! »

ـــ « ومن تكون أيّها الرجل ؟ »

ـــ « اسمى " بطرس بلود ". »

ـــ « وماذا تعمل هنا ؟ »



ــ « إنى طبيب ، وقد استدعيتُ لأعْنَى بهذا الجريح . »

ــ « ها . ها . أنت أيضاً طبيب ... تُخْفِى جُرْمَ التمرد والعصيان تحت مُسُوح الطب . . . إن المشنقة فى انتظارك يا هذا . »

ــ « أرى أن لك كلَّ الصِّفات التى تجعل منك جلاَّداً ممتازاً ، ولكن حَذارِ على عنقك ، فهذا الجريح ليس ممَّن يُشنق فى يُسرٍ وسهولة ، فهو لورد ومن حقّه أن يحاكمه مجلس اللوردات . . . »

فاضطرب الضّابط قليلاً وقال :

ــ « مجلس اللوردات ؟ ! »

ــ « نعم . إن هذا الجريح هو اللورد " جلدوى ". »

فقال الضابط لجنوده مفكراً مهموماً :

ــ « كيفما كانت الحال فمهمّتنا القبضُ على الثوّار ، فانقلوا هذا الجريح مستلقياً على سريره ، وأوصلوه إلى سجن العاصمة ، وسأرفع أمره إلى القيادة العليا . »

ومدّ الجريحُ يده إلى « بلود » وقال له بصوت ضعيف :

ــ « أشكرك ياسيّدى . . . لقد طوّقْتَ عُنُقِى بجميلك . .. فإن كتبتْ لى الحياة فسوف أجتهد فى أن أفى بحقّ جميلك علىّ . . . »

ونفّذَ فريقٌ من الجنود أوامر الضّابط ، فنقلوا الجريح وهو مستلقٍ إلى سريره ، ثم أصدر إلى بقية جنوده الأمر بالقبض على صاحب المزرعة

والشاب نسيب الأختين «پت» وعلى الطبيب «بلود» .

وحاول الطّبيب أن يقاوم ذلك الأمر فلم يُفْلِح ، فقد انقضّ الجنود عليه وطرحوه أرْضاً ، وأوثقوا يديه وراء ظهره ، ثم أنهضوه وركب الجنود جيادهم ، وربطوا كلاً من هؤلاء الثلاثة إلى رِكاب أحد الجند ، وسارت القافلة بهؤلاء المساكين .

وفي ذلك الصّباح من شهر يونيو الجميل ؛ وعلى مرأى من أشجار التّفاح التي تنوء في تلك المزرعة بالثّمار ، كان «بلود» يفكّر في أنّ الإنسان هو ألأم مخلوقات الله ، وأنّ المعتوه المجنون هو الذي يَقِفُ حياته على مداواة ذلك الدّنِيّ الحقير . . .



٢

بعد شهرين من اعتقال الطبيب « بلود » ، وعلى وجه التّخصيص فى التّاسع عشر من شهر سبتمبر ، بدأت محاكمته بتهمة الخيانة العُظْمى .

وكان الرّجل ـ كما نعلم ـ بريئاً من تلك التّهمة ، فَلَقِيَ من العذاب والاضطهاد ما أثار فى نفسه الحقد والبغضاء على الملك «جاك» . ولكنّه وهو البرىء قد سرّه أنهم لم يشنقوه بدون محاكمة ، وأنّ المحاكمة قد جرت فى التاسع عشر من سبتمبر .

ويوم قادوه إلى المحكمة قادوا معه كثيراً من المعتقلين الأشقياء البائسين ، بعد أن ربطوهم اثنين اثنين ، وساقوهم سَوْقَ النَّعم ، فمن تعثّر منهم ألهبوا

ظهره بالسِّياط ، وأجبروه على السَّيْر ، أو رَموْه وهو مثخَنٌ بالجراح فى عربة فلفظ فيها أنفاسه .

وكثيراً ما حاول الطّبيب «بلود» أن يُعْنَى بهؤلاء الجَرحَى المساكين ، ويبذل لهم ما يستطيعُ من معونة ، فكان الحرس يمنعونه من مزاولة فنّ الطب.

وكان ذلك الشّابّ الذى جَرّ عليه البلاء والوبال زميله فى القيد وسميره وجليسه طول مدّة الاعتقال .

ولقد علم الثوّار من أحاديث الحرّاس ، أن الثورة قد أخفقتْ ، وأنّ الدوق « مونماوث » قد شُنِق ، وأنّ أنصاره قد يئسوا فتفرقوا ، وأنّ اللورد « جراى » قد خلفه على زعامة الثورة ، ولكنه اشترى العفو عنه بمبلغ أربعين ألف جنيه . . .

وكان « بلود » يسمع هذه الأحاديث فلا يحفل بها ، ولكنه ثار فى آخر الأمر ثورةً عنيفة على هؤلاء السادة النبلاء ، ومنهم اللورد « جلدوى » الذى ذهب يعالجه ويداويه ، فقد اشتروا الصَّفْح عنهم بمبالغ من المال ، فى حين كانت المشانق هى الجزية التى دفعها الثوّار البائسون .

غصَّت المقاعد والأروقة فى قاعة المحكمة بالمتفرّجين ، ودخلت هيئة المحكمة بأعضائها الخمسة ومحلّفيها الاثنى عشر ، واستَوَوْا فى أمكنتهم فخيَّم على الحضور الصَّمت والرّهبة والسكون ، ثم قطع ذلك الصَّمت صوتٌ أجشّ يقول :

— « ارْفَعْ يدك يا " بطرس بلود " . »

فرفع « بلود » يده بحركة عفويّة ، فقرأ محامى التاج ورقة الاتهام، فإذا هى تتّهم « بلود » بالخيانة العظمى.

وكان « بلود » فى هذه الأثناء يحدّق فى رئيس المحكمة ، وينظرُ إليه نظرةَ الطبيب الفاحص ، فبدا له أن الرجل مصابٌ بمرض عُضال. فلما انتهى محامى التاج من تلاوة ورقة الاتهام، وسُئِل « بلود » حسب التقاليد أهو مُذْنبٌ أم غيرُ مذنب قال :

— « إنّى برىء . . . »

ولم يَرْضَ محامى التّاج بهذا الجواب ، وأصرّ على أن يجيب المتّهم الإجابة التقليدية المعروفة ، أهو مُذْنب أم غير مذنب . فقال « بلود » :

— « غير مُذنِب . »

وسُئِلَ صاحبُ المزرعة هذا السؤال أيضاً فقال إنّه غير مُذْنِب ، أمّا الشّابّ « پت » فاعترف أنه مذنب .

ثم بدأ محامى التاج مرافعته مستشهداً برئيس الجند الذى ألقى القبض على هؤلاء الثلاثة. فسأل رئيس المحكمة كلاًّ من هؤلاء الثلاثة ألَهُ اعتراضٌ على أقوال الشّاهد فقالوا : لا. غير أن « بلود » أضاف إلى النفى قوله :

— « ليس لى اعتراضٌ على أقوال الشاهد يا سعادة الرئيس ، غير أنه لم يَقُلْ فى شهادته ماذا كنت أفعلُ عندما ألقى القبض علىّ ... »

فقال رئيس المحكمة :

ـ « وماذا كنتَ تفعل ؟ »

فقال « بلود » :

ـ « إنّي طبيب... وبهذه الصفة دُعيت إلى معالجة اللورد "جالدوى" وتضميد جروحه . »

فصاح محامى التاج وهو يحاول أن يؤثّر فى المحلّفين :

ـ « يا للعجَب . . . هذا منتهى العجب . . . يزعُم هذا الرجل الآن أنه طبيب . . . بعد إذ قرّر فى " المحضر " أنه عرف اللورد " جلدوى " فى مدينة " طنجة " وأنه كان عند ذلك فى خدمة الهولنديّين . . »

فقاطعه « بلود » وقال :

ـ « لقد كنت طبيباً قبل أن أكون جنديّاً ... ثم عُدْتُ طبيباً منذ شهر يناير من هذا العام . . . »

فقاطعه محامى التّاج وقال :

ـ « هذا مُحال ! فالطبيبُ الهادئ الوادع لا يكون فى صحبة الثّوار .. »

فقال « بلود »

ـ « ومن ذا الذى قال إنى كنت منضمّاً إلى الثوار ؟ ... وهل من المعقول وأنا رجل كاثوليكى المذهب أن أنضوى تحت راية زعيم البروتستنت ؟ ! »

فانحنى رئيسُ المحكمة إلى الأمام ، ورفع يده المضمومة الأصابع

على منديله ، وقال موجهاً الخطاب إلى « بلود » :

— « كلٌ ومتذهبته ... فاذكر يا فتى أن الله يكره الكذب ، ولسوف يعاقبك عليه عندما تمثل أمام محكمته فى اليوم الأخير . . . فأستحلفك بالله إلا قلت الصدق ، وذكرت للمحكمة ماذا كنت تصنع فى صحبة الثوّار ؟ »

— « دعيتُ لأغيثَ اللورد "جلدوى" وقد رأيت من واجبى أن ألبّى الدعوة . »

فقال محامى التاج وقد احتقن وجهه :

— « ومن ذا الذى دعاك ؟ »

فقال « بلود » :

« الشابّ " پت " ويستطيع أن يشهد على ذلك . »

فقال محامى التاج :

— « يا له من شاهد ! . . . لقد سمعته منذ قليلٍ يعترف بأنه خان مليكه ! »

فقال رئيس المحكمة :

— « يا سيّد "بلود" عندما جاء الشابّ "پت" يدعوك إلى معالجة اللورد " جلدوى " أكنتَ تعرفُ أن هذا الشابّ منضم إلى الثوّار ؟ »

— « نعم كنت أعرف ذلك . »

– « أوَلمْ تتردّد مع ذلك فى تلبية دعوته واصطحابه إلى حيثُ أراد ؟»

– « لقد لبّيْتُ نداء الواجب ، واجب الطبيب . »

فقال محامى التاج محتدّاً :

– « أىّ واجب لبّيْتَ نداءه أيها الوَقِح ! إن واجبك أن تخدم الله والملك . أما كنت تعرفُ أنك ذاهبٌ لمعالجة لورد هو من أنصار الدوق " مونماوث " ؟ » .

– « بلَى كنتُ أعرف . »

– « وذهبتَ إلى إغاثته غير حافل بواجب الإخلاص للملك ؟ »

فعيلَ صبر « بلود » وقال :

– « كان علىّ أن أعنى بجراحه لا بآرائه . »

فدوّت همهمةُ تأييدٍ من صفوف المتفرّجين ، شاركهم فيها بعضُ المحلّفين مشاركةً صامتة ، فثارت ثائرةُ محامى التاج وقال يخاطب المحلفين :

– « يا للرّجل الوَقِح ! إن فى بعض ما قاله هذا الرجل أيها السادة مَدْعاةً لشنقه . » ثمّ أتمّ مرافعته غير شفيقٍ بواحد من المتهمين الثلاثة .

واختَلت هيئةُ المحكمة بعد ذلك للمداولة ، واختلى كذلك المحلّفون ، ولما عادت المحكمة إلى الانعقاد أعلن المحلّفون أنهم يعدّون المتهمين الثلاثة مذنبين . فسأل رئيس المحكمة المتهمين الثلاثة عمّا لديهم من دفاعٍ عن

أنفسهم ، فأجاب الاثنان سَلْباً ، أمّا « بلود » فقد انطلق يقهقهُ ضاحكاً ، فقال له رئيس المحكمة :

ــ « أتضحك وأنت على أبواب الأبديّة ؟ »

فأحَبَّ « بلود » أن يثأر لنفسه وقال :

ــ « يا سعادة الرئيس! أنا أَوْلَى بالضَّحِك منك. فاسْمَعْ منّي آخر كلمة في هذه القضية قبل أن تصدر حكمك . . . إنّني برىء . . ولعلَّ اللوم الوحيد الذي قد يُوَجَّه إليّ ، أني كنت إنساناً أجابَ نِداء الإنسانية. إنك يا سعادة الرئيس تُلَمِّحُ ، وأنت القاضي ، إلى ما ينتظرني ، وإني لأستطيع أن ألمّح ، وأنا الطبيب ، إلى ما ينتظرك . . . ولا أكذبك القول أني لا أتمنّى أن أكون في مكانك... فلن أستبدلَ بحَبْل المشْنَقة هذا الدّاء العُضال الذي ينخر جسمك . . . إنّ الموت الذي ستحكم به عليّ هو أعْذَبُ وأحلى من الموت الذي يدّخره لك الله سبحانه وتعالى . . »

واصْفَرَّ وجهُ رئيس المحكمة ، وارتجفت شفتاه ، وبقي هنيهةً جامداً صامتاً لا يتحرّك . . . وانتظر كلُّ من في القاعة أن ينفجر الرئيس غاضباً ساخطاً ، ولكنه تملك أعصابه ، وانحنى قليلاً إلى الأمام ، وأصدر حكمه على المتّهمين الثلاثة بالقتل شَنْقاً ، ثم استلقى إلى ظهْرِ مقعده ، وقد أخذ منه التّعب والإعياء كلّ مأخَذ . . . .

وسار الحرسُ بالمتهمين الثلاثة . . . ولئن وصل « بلود » إلى هذه

الخاتمة الأليمة ، لقد كان من حسن حظه مع ذلك أنَّه لم يشنق بغير محاكمة ، وكان من حسن حظه أيضاً كما قلنا أنه حوكم يوم ١٩ سبتمبر ، فقد كان تنفيذ الحكم بالشَّنق إلى هذا التاريخ ، يحدث بسرعة البرق الخاطف ، ولكن حدث أن تلقَّى رئيس المحكمة فى ظهر ذلك اليوم ، رسالة من رئيس الوزراء ، يأمره فيها بوقف تنفيذ القتل ، ويخبره أن جلالة الملك قد أصدر عفوه عن ألف ثائر ، وأمر بنقلهم إلى جزر « الأنتيل » عبيداً مسخّرين .

وهكذا ابتعد حَبْلُ المشنقة عن عنق « بلود » وعنق زميليه ... فأوصلهم الحرس إلى مدينة « برستول » وأركبوهم مع خمسين رجلاً من الثوّار السفينة « جامايكا » فسارت تمخرُ بهم البحار إلى تلك الجزر النائية . . .

واجتمع على هؤلاء الثوار المساكين ، سوءُ الغذاء وسوء المأوى فى قعر السفينة ، فركبتهم الأمراض ، ومات منهم ١١ رجلاً كان بينهم صاحب المزرعة .

وأبَى رُبّان السفينة فى أول الأمر أن يسمح للطبيب « بلود » بمعالجة هؤلاء المرضى البائسين ، ثم اضطُرَّ فى آخر الأمر إلى القبول ، والسَّماح له باستخدام صندوق الأدوية والعقاقير الموجود فى السفينة ، خشية أن يموت جميعُ هؤلاء الثوّار ، فيخسر المبلغ الذى كان يتوقع أن يظفر به من بيعهم فى سوق الرَّقيق .

وفى منتصف ديسمبر ، رَسَت السَّفينة فى ميناء « كارليل » ونزل منها

الأشقياء الاثنان والأربعون ، فوجدوا أنفسهم فى ميناء صغير جميل ، ومدينة ذات طابَع أوربىّ ، قام قصرُ الحاكم فيها على ربْـوَةٍ من الأرض ، واكتست الربى كلها بثوب أخضرَ جميلٍ فشهرُ ديسمبر فى تلك البقاع يعادِلُ شهر أبريل فى إنجلترا . . .

وجاء الحاكم « ستيد » يتوكّأ على عصاه ليرى ذلك الفوج من المحكوم عليهم ، فاقترب منهم ، ووقف وراءه رجل طويل القامة بدينٌ ضخم ، هو رئيس حامية الجزيرة ، ووقفت إلى جانب هذا العملاق ، فتاةٌ رشيقةٌ جميلة ، تلوح على وجهها أمارات الشّفَـقة والحنان بهؤلاء البائسين المنفيين

نظر « بلود » إليها مدهوشاً مستغرباً من وجود ذلك الملاك فى تلك البُقْعة النّائية ، وكانت هى أيضاً قد وقع نظرُها على « بلود » فحدقت فيه طويلاً ، ثم أسرّتْ بشىءٍ إلى رئيس حامية الجزيرة ، فالتفت إليهما الحاكم واشتركوا جميعاً فى الحديث ، فسمع « بلود » الحاكم يقول لرئيس الحامية :

ــ « يا عزيزى " بيشوب " لك الخيار ... فاختَرْ من تريد ، ثم نبيع الباقى فى المزاد العلنى . »

فاختار رئيس الحامية الشّابّ « بت » ودفع فيه ١٥ جنيها ، ثم أجال طرفه فى بقية المحكوم عليهم فاختار منهم من اختار ، ولما تطلع إلى « بلود » أظهر امتعاضه من شكله وحاله ، فاقتربت الفتاة من رئيس الحامية وكان عمها وقالت له :



— « هوذا الرجل الذى حدثتك عنه يا عمّاه . »

— « هذا الرجل ؟ إنه جِلْدٌ على عَظْم ! ! . . . »

فاشترك ربّان السفينة فى الحديث وقال :

— « إنّه نحيل البِنْية ولكنه قوىٌّ الأجْلاد ... لم يمرض قطٌّ فى أثناء السّفر بل تولّى هو نفسه معالجة زملائه ... فادفعْ لى به يا سيادة الرئيس خمسة عشر جنيها ... إنه رجل يتحمل القيظ والحرارة . »

وبعد المساومة اشترى « بيشوب » رئيس الحامية الطبيب « بلود » بعشرة جنيهات ، وهكذا حكم عليه القدر بأن يكون عبداً لذلك الجِلْف الغليظ . . .



٣

فى صباح يوم جميلٍ من أيام شهر يناير ، أى بعد نحو شهرٍ من وصول السّفينة إلى ميناء « كارليل » ، خرجت الآنسة « أرابلا بيشوب » من منزل عمّها الكولونيل «بيشوب» رئيس الحامية ، وامْتَطتْ صَهْوة جوادها ، وسارت به فوق الرُّبَى والتِّلال ، يتبعها مَشياً على الأقدام عَبْدان أسودان.

وصلتْ إلى قمة تلٍّ من التِّلال ، فرأت رجلاً مرتدياً برداء أسود مقبلاً إليها ، فوقفت جوادها ، فدنا منها الرجل ، ورفع إليها عَيْنَيْن مملوءتين بالحزن والكآبة ، فحدقت فيه وقالت :

— « يلوح لى أنِّى رأيتك قبل اليوم يا سيّدى ! »

وكان فى صوتها رنينٌ من الصّراحة والبراءة وسلامة الطويّة ، كانت قد كسبت بها كلّ من عرفته أو لقيتَتْه من الرّجال الأحرار أو العبيد ، وكانت وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ، لا تزال فتاةً غير متزوّجة على كَثْرَة من تقدّم إليها من الخُطّاب .

فقال لها الرجل :

— « كيف لا تعرفين يا آنسة مَنْ هو ملكُ يَدَيْك ؟ »

— « ملكُ يدىّ أنا ؟ ! »

— « ملكُ يديك أو ملك يدى عمّك فالأمر سيّان ... اسمى "بطرس بلود" وثمنى عشرة جنيهات اشترانى بها الكولونل عمّك . »

فعرفته الفتاة ، وكانت لم ترهُ منذ ذلك اليوم الذى وصل فيه إلى الميناء ، وعرفت كذلك ما قيل عنه من أنه طبيب ، وتذكّرتْ أنه شفَى الحاكم من الداء الذى ألمّ به ، فى حين عجز عن ذلك جميعُ أطباء المدينة ، كما أنه شفَى زوجة الحاكم أيضاً مما كانت تعانيه من القَيْظ القاتل . . . ثم قال لها :

— « تقبّلى يا آنسة جزيل شكرى ، فلو اشترانى غيرُك لكنتُ الآن مع زملائى التّاعسين ، أعمل فى الحقول تحت ضربات السّياط ، ولما استطعت أن أزاول ما أعرفُ من صناعة الطب . »

— « ولكن الذى اشتراك يا سيدى هو عمّى لا أنا .

— « ما كان ليشتريني لو لم تدفعيه إلى شرائي . . . لقد لمحتُ ذلك . . .
فلماذا اهتممتِ بشأن رجلٍ غريب . »

— « لأني وجدتُك تختلف عن بقيَّة المحكوم عليهم . . . »

— « هذا صحيح يا سيّدتي . . . »

وقص عليها قصّته الأليمة في إيجاز واختصار ، فنالت من فؤادها كلَّ منال ، ورثت لحالِ بلدها من شُيوع الفوضى والظُّلْم فيه .

ثم أعملتْ مهمازها في بطن الجواد ، فجرى مسرعاً ، ولحق بها العبدان الأسودان اللّذان كانا قد وقفا على مسافة منها ، وانحنى « بلود » مسلِّماً ، وبعد قليل سار إلى مستعمرة الأكواخ المخصصة بسكنى العبيد ، وكان « بلود » يسكن فيها مع إخوانه في الشقاء .

كان ينظر إلى مَذلَّتهم ومذلته ، وإلى عملهم القاسي تحت الشّمس المحرقة ، وضربات السِّياط ، فيتألّم لهم ، ويمتلئ قلبه حقْداً على القُساة الظّالمين .

ومن حين إلى آخر ، كان يقابل الآنسة « بيشوب » فتحدّثه قليلاً ، وكان يُمْسك نفسه عن الاستسلام إلى ما كانت تُشيعهُ الفتاة في نفسه من طمأنينة وتفاؤل ، فقد كان يعتقدُ أن مظهر الفتاة الجميل العادل ، لا بدّ أن يُخفي مخبراً قاسياً ظالماً ، ما دامت ابنة شقيق ذلك الكولونل الطّاغية .

ولكن كان « بطرس بلود » مخطئاً فى حكمه ، وقد برهنت له الأيام على خطئه .

وفى يوم من أيام شهر مايو دخل ميناء « كارليل » سفينة إنجليزية مصابة بكثير من العَطَب ، فقد كانتْ قاتلتْ سفينتين من سُفن الإسبان ، واستولت على ما فى إحداهما من أسْلاب ، فى حين ولّت الثانية الأدْبار هاربة . وكان ذلك عملاً من أعمال القَرْصَنَة التى كانت شائعةً فى ذلك العصر ، فتغاضى حاكمُ الميناء عن الأمر ، وسمح للسّفينة بالبقاء فى الميناء ، رَيْثَما تُصْلِح ما فيها من عطب ، كما سمح بإنزال الأسرى الإسبانيين لمعالجتهم ، وعهد فى تلك المعالجة إلى الطبيب « بلود » لأنه كان يجيد التكلم بالإسبانية ، ولأنه ذليلُ الشّأن فى السّلم الاجتماعى ، فقام بمهمته على أحسن وجه ، وإن كان يكره الإسبانيين بعد إذ مكث سنتين سجيناً فى أحد سجونهم .

وبينما هو فى أحد الأيام يَجْبُرُ عظماً مهيضاً لأسيرٍ من هؤلاء الأسرى ، إذ سمع صوتاً أجشّ يقول له :

– « ماذا تفعل هنا ؟ »

فقال « بلود » دون أن يرفع رأسه عن مريضه :

– « أجْبُرُ عظماً مَهيضاً . . . »

– « إنى لأرى ذلك أيُّها الوَقِح ؛ ومن سمح لك بجَبْر العِظام ؟ »

— « إنى طبيبٌ يا سيادة الكولونل " بيشوب " ، وإنى أزاولُ مهنتى . »

واستمرّ « بلود » فى عمله ، فاستولت على الكولونل سَوْرَةٌ من الغضب فقال وهو يصيح :

— « قِفْ حالاً عن العمل. وانظر إلىّ أيُّها الوقح عندما أكلّمك. »

— « هذا الرجل يتألم . . وكيفما كانت الحال فأنا أنفذ أوامر سيادة الحاكم . »

وكان الكولونل « بيشوب » قد رفع سَوْطه ، وهمّ بضرب « بلود » فتوقف واحتقن وجهه وقال :

— « الحاكم ! »

وذهب إلى لقاء الحاكم ، ثم خرج من لَدُنْه ووجهه أشَدُّ احتقاناً ، فقد أفهمه الحاكم أنه وحده الآمر الناهى فى تلك البقاع ، وأنه قد أصدر أمره إلى « بلود » بمعالجة الأسرى ، فهو إنما يفعل هذا تنفيذاً لأمره . . .

وكان « بلود » فى هذه الأثناء لا يزالُ يعنى بعظم المريض المكسور ، فالتفت فجأة إلى الوراء ، فرأى الآنسة « أرابلا بيشوب » يتبعها عبدٌ أسودُ يحمل سلةً مملوءة بالثِّمار .

عرف « بلود » أنها جاءت بالثِّمار للمريض ، فقال لها كمن يحدثها عن شىء حقير مرذول :

— « هذا الرجل إسبانىٌّ يا آنسة ! »

ـ « أعرف ذلك وأراه ، ولكنه مع هذا إنسانٌ من بنى البَشَر ! »

فدهش « بلود » من هذا الجواب ، ولم يستطع إخفاءَ دهشته فقال :

ـ « ولكن هذا يا آنسة ليس رأى عمّك الكولونل . . . فهو يريد أن يترك الأسرى وشأنهم حتى يموتوا متأثّرين بجراحهم . . . »

فنظرت الفتاة إليه نظرةً طويلة ، مدركةً ما وراء كلامه من سخرية واشمئزاز ، ثم قالت له بعد أن تناولت بعض الثمار ووضعتها على سرير المريض :

ـ « لماذا تقول لى هذا ؟ »

ـ « لكى أنبّهك إلى الخطر الذى تستهدفين له ، فعملك هذا وآراؤك هذه لا تروق عمّك الكولونل . »

ـ « أتظنّ أن آراء عمى يجب أن تكون آرائى ؟ »

ـ « هيهات أن أسىء الظن بامرأة ، ولكن ذهب فكرى إلى عمّك فلو جاء ورآك . . . »

فقاطعته الفتاة وقالت :

ـ « وصفوة القول أنك تتّهمنى أوّلاً بتجرُّدى من الإنسانية ثم بالجُبْن . . . أنت الذى تزعم أنك لا تسىء الظنّ بالنِّساء . »

وانطلقت تقهقه ضاحكة ، فتطلع « بلود » إليها ، وخُيِّل إليه أنه يراها لأول مرة ، فقال فى نفسه وهو يحاول إخفاء شعوره : هذه الفتاة

وعمها مَلَكٌ يعيش فى رحاب شيطان .

ومرّت الأيّام، وطارت شهرة « بلود » فى الطب والتّطْبيب ، فاستاء منها الطبيبان المقيمان بالمدينة ، فعرض أحدهما على « بلود » أن يسعى فى فراره ، ويمهّد له السبيل إلى ذلك ، فخشى « بلود » فى أول الأمر من كمين يريد أن يوقعه به ، ثم لمّا استوثق من أنه لايبغى إلاّ الخلاص من منُافسته، رَضىَ بالعرْض، وطلب إليه أن يجهّز له سفينة يُبْحِر بها هو وزملاؤه إلى أقرب جزيرة هولنديّة ، واتفقا على أن يرسل الطبيب خادمه إلى « بلود » فى الوقت المناسب ، ليدلّه على السفينة ، ويخبره بموقعها حتى يُعِدّ عُدّته ، ويحدّد يوم الفرار وساعته.

ويوم أعدت السفينة شاء الحظّ العاثر أن يذهب الخادم إلى الحقول فلا يلقى « بلود » هناك ، فقيل له ربما كان « بلود » فى المستعمرة ، فهمّ بالسَّيْر إليها ، فإذا بالكولونل « بيشوب » يظهر فجأةً ووراءه عبداه المسلَّحان بالسكاكين الغليظة ، فما كان من الخادم إلاأن استدار على عقبَيْه ، وأطلق ساقَيْه للرّيح فى الجهة المقابلة، متوغّلاً فى الغابات، وكان أخشى ما يخشاه أن يكون الكولونل قد رآه وعرفه، فلن ينجو إذن من عقابه الصّارم .

وكاد الكولونل أن يأمر عبدَيْه باللحاق بذلك الهارب ، ولكنه لما كان قد رآه يحدّث الشاب « پت » فقرر أن يسأله عنه ويعرف من هو . وكان « بلود » قد أطلع « پت » على مؤامرة الهرب ، وأخبره أنه يعتمد عليه فى

قيادة السفينة ، لما يعرف عنه من مهارة وحِذْقٍ فى الملاحة وقيادة السّفن.

فلما وصل الكولونل إلى « پت » سأله عن الرجل الهارب ، فأنكر أنه يعرفه ، فانقض الكولونل على « پت » المسكين يضربه بعصا رفيعة الخَيْزُران كانت فى يده ، فلم يُحِر الفتى جواباً ، ولا نَبَس بِبِنْتِ شَفَة ، ثم أمر العبدين بأن يقودا « پت » إلى المكان المخصّص بجلْد العبيد، وأن يُعْمِلا به السِّياط فنفّذا أمر سيدهما ولم يتركا ذلك الشاب المسكين إلا وظهره مثْخنٌ بالجراح ، وهو أقربُ إلى الأموات منه إلى الأحياء . . .

وانصرف الكولونل وقدأرْوى غليلَه من الحقد والبغضاء ، على ذلك الفتى الذى تحمّل أقسى أنواع العذاب ، وكَتَم اسم الخادم الذى كان يحدّثه .

واتّفق أن مرّ « بلود » بذلك المكان ، فلقى فيه « پت » على تلك الحال من الجراح المفتوحة ، فأخذ يعالجه ويضمّد له الجراح ، فعرف منه أمر الخادم ، وفهم أنه جاء يُنْهى إليه بأن سيده قد أعَدَّ له سفينةَ الهرب.

واتّجه نظر « بلود » و « پت » إلى الميناء فرأيا سفينة ضخمة رافعة العلم الإنجليزى تدخل إلى الميناء، وأدركا من طريقة دخولها إلى الميناء فى حرص وحذر ، أن الربّان غريبٌ عن ذلك الميناء ، ثمّ شاهداها بعد قليل تطلق دخاناً كثيفاً استترتْ وراءه ، ولم يعد يُرَى منها إلا



رؤوس سواريها .

وفى غمار ذلك الدُّخان الكثيف ، أخذت تلك السفينة تُطلق النار ...

فدهش « بلود » وزميله من ذلك الحادث ، ولكن تجلَّت لهما حقيقة تلك السّفينة ، لما رأيا أن العَلَم الإنجليزى قد انطوى منها ، وأن النار المنبعثة من مدافعها يدل لَهَبُها الأحمر الذّهبيّ على أنها من نيران قشتالة الإسبانية ، فهزّا رأسيهما ، وكان الكولونل « بيشوب » فى تلك اللحظة على قمّة رابية من الرّوابى ، فرأى هو أيضاً كل ذلك ، وفَهِم ما يجب أن يفهم فلم يسعه إلا أن يصيح فى ذعر وخوف :

— « إنهم القراصنة . . . »



٤

لم تكن تلك السّفينة التى دخلت الميناء وهى رافعةٌ العَلَمَ الإنجليزى إلا سفينة إسبانيّة ، جاءت تثأرُ للأسطول الإسبانى من الهزيمة التى لحقت منذ أيام بسفينتين من سفنه .

وكانت هذه السفينة وعلى رأسها الربّان « دون دياجو » هى التى هربت عندما هاجمها السفينة الإنجليزية الراسية فى ميناء « كارليل » تُصْلِح ما بها من عَطَب .

وصلت الأنباء إلى الربّان أن السفينة الإنجليزية قد التجأت إلى ذلك الميناء ، وانتهى إليه أيضاً أنّ بقية قطع الأسطول الإنجليزى بعيدة عنها ،

فسوّلت له نفسه المتعطشة إلى الأخذ بالثأر ، أن يهاجمها فى ذلك الميناء ، وأن يأخذها ويأخذ حامية المدينة على غـِرّة .

وتمّ له ما أراد ، فقد أسكتتْ نيرانه مدافع الحصن المشرف على المدينة ، وفـَهـِم الجند الذين فيه أن عدوًّا من الأعداء قد باغتهم وخدَعهم بالعَلَم الإنجليزى الخفّاق فوق السفينة .

وكان الكولونل « بيشوب » ينظر إلى تلك الحوادث ، وقد عقدت الدهشة لسانـَه ، ولا سيا عندما أطلقت تلك السفينة السِّلْسلة الثانية من قذائفها ، فدمّرت حصن المدينة وجعلته قاعاً صَفصَفاً .

ثاب رُشْدُ الكولونل إليه ، فأدرك الخطر المـُحـْدق بالمدينة بل بالجزيرة كلها ، وسمع الطُّبول تـُقـْرَع فى شوارع المدينة داعيةً أهلها إلى الدفاع عن ذِمارهم ، فما وَسِعه إلا أن يجرى مسرعاً إلى حيثُ يدعوه الواجب ، فما كان لرئيس الحامية أن يَتخلّـَف عن ذلك النداء : فركض يتبعه حارساه . . .

وفى ناحيةٍ أخرى من الجزيرة ، كان « بلود » يقول للفتى « پت » :

ــ « ماذا وراء كلّ هذا ؟ ليس إلا الشيطان مَنْ يعلم ذلك ؟ ! »

ولم يكن « بلود » وصاحبه بعيدين عن الحصن الذى تهدّم ، فرأيا الأحياء من ناحية الحامية قد هجروا الحصن ووراءهم جمهرةٌ من الأسرى الثوّار ثم دخلوا أحد المنازل وخرجوا منه مدجّجين بالسلاح وسمعا ضابط الحصن يقول للمجتمعين :

– «تفرّقوا فى الغابات حتى إذا ابتعد الإسبان عنّا عُدْنا إلى المدينة.»

وتلكّأ المستمعون فى الجواب وتلبية النداء ،غير أن الضّابط لم يكن ينتظر الجواب ، ففى أسرع من تردُّد الطرف كان قد اختفى عن الأنظار.

وغَلَى الدَّمُ فى عُروق « بلود » فإذا به يتوسط هؤلاء الثوّار والجنود ويقول لهم :

– « وعلامَ التفرُّق والهرب ؟ لننتظر على الأقلّ حتى يستولى الإسبان على المدينة . »

ومن قمّة الرابية التى اجتمع فيها هؤلاء الرجال ، رأى « بلود » زوارق الإسبان تمخُرُ عُبَاب الماء إلى الميناء وهى محمَّلة بالجنود ، فاحتلَّته بغير مقاومة .

على أن الإسبانيين عندما تفرقوا فى شوارع المدينة ، قاومهم الأهلون مقاومةً شديدة ،وقاتلوهم قتالَ الأبطال ، ولكن تغلَّبَ الإسبان عليهم ، فما كادت الشمس تغرب فى ذلك النهار ، حتى كان الإسبان قد سيطروا على المدينة .

ومشى الربان « دون دياجو » إلى قصر المحافظة ، فاستقبله الحاكم « ستيد » والكولونل « بيشوب » وبعض كبار الضباط . فأنهى إليهم « دون دياجو » ساخراً هازئاً بمبلغ الجزية التى فرضها عليهم . . .

وجازف « بلود » بعد الأصيل ، فسار إلى المدينة ، وشهد بأمِّ عينه

ما ارتكبه هؤلاء القراصنة الإسبان من جرائم وفظائع ، وعندما هم بالرجوع مشمئزًا مستنكفاً ، استوقفه فى شارع ضيق صوتُ فتاة جازعة ، لم تلبث أن ألقت بنفسها إليه متوسلة أن ينقذها من جندى إسبانى كان يتعقبها والسيف مسلول فى يده ، فوقف « بلود » بين الإسبانى والفتاة ، وكان قد التقط سيف أحد الأموات فشهره فى وجه ذلك الجندى المتوحش .

فكبُرَ الأمر على الإسبانى ، فهجم على « بلود » وهو يقول :

— « ابتعد من طريقى أيها الكلب الإنجليزى ! »

فما كان من « بلود » إلا أن تفادى الضربة ، وكال لذلك الإسبانى ضربة شديدة محكمة ، طرحته من فوره إلى الأرض فاقد الحياة .

ثم أمسك بيد الفتاة وساربها فى الشوارع والأزقة ، حتى وصل إلى مسكن الكولونل « بيشوب » فطرق الباب ثم كرر الطرق فلم يجبه أحد ، فأخذ الحزنُ والقلق منه كل مأخذ ، وخشى أن تكون الآنسة « أرابلا » قد خرجت من المنزل وتعرضت للسوء والأذى ، ولكنه تنفس الصعداء لما سمعها تقولُ من وراء إحدى النوافذ :

— « من الطارق ؟ »

— « أنا "بطرس بلود" . . . »

— « ماذا تريد ؟ »

وتقدمت الفتاة التى صحبها « بلود » حتى قاربت النافذة فقالت :

— « ” أرابلا “ ! أنا ” مارى تريل“ . »

وبعد دقائق ، فتحت الآنسة « أرابلا » الباب ، فدخل « بلود » وتبعته الفتاة فارتمت فى ذراعى « أرابلا » وهى تنشجُ وتنتحب .

واهتمّ « بلود » بأن لا يضيع الوقت فسأل « أرابلا » :

— « من معك هنا يا آنسة من الخدم والرّجال ؟ »

— « رجل واحد هو خادمى العجوز ” جيمس“ » .

— « مُريه أن يُسْرج الجياد ... فأنت هنا فى خَطَرٍ يا آنسة ، فعليك أن تلتجئى إلى مدينة أخرى من مدن هذه الجزيرة . »

— « ولكن كنتُ أظنّ أن المعركة قد انتهت ! »

— « أجل يا آنسة ، إن المعركة قد انتهت ، ولكن حل محلها السَّلْبُ والقتل والنَّهْب . . . ولسوف تحدّثك الآنسة ” مارى “ بهذا . . . »

فقالت الفتاة :

— « لقد أنقذنى السيد ” بلود “ »

فقالت « أرابلا » :

— « أنقذك ! ؟ ممن ؟ وممّ ؟ »

فقال « بلود » مقاطعاً :

— « من لا شىء يا آنسة . . . ستتحدثان عن كلّ هذا فيما بعد ... فهل لك يا آنسة أن تستدعى ” جيمس “ فالوقت ضيّق . »

فقالت « أرابلا » :

— « أأصبحتَ يا سيد " بلود" تأمر وتنهى فى هذا المنزل ؟ »

فتطلّع « بلود » إلى الفتاة « مارى » وقال لها بلهجة المتوسّل :

— « أخبريها يا آنسة أنى حقيقٌ بأن آمر وأنهى فى مثل هذه الساعة ، وفى مثل هذا الخطر الذى تتعرّض له . »

فقالت الفتاة « مارى » :

— « أنتَ على حقّ يا سيّد " بلود" وإنى لن أنسى ما حييتُ فضلك علىّ . »

وما هى إلا دقائق حتى كانت الفتاتان ووراءهما الخادم « جيمس » تخبّ بهما الجياد فى الليل البهيم هرباً من ذلك الميناء. ولما وقف « بلود » يودّع تلك القافلة، ويتمنّى لها سفراً سعيداً ، لم يسمع فى جنح الدُّجَى إلا صوت الآنسة « مارى تريل » تقول له وهى مبتعدة :

— « لن أنسى ما حييتُ فضلك علىّ يا سيد " بلود " . »

على أن « بلود » كان متشوقاً إلى سماع غير هذا الصوت . . . كان يَوَدُّ لو سمع صوت « أرابلا » يحيّيه ويودّعه . . .

وبقى « بلود » هنيهة جامداً لا يتحرك ، ثم صحا من حلمه وعاد إلى رفاقه . . .

* * *

وفى تلك الليلة التى استسلم فيها الإسبان إلى السَّلب والنَّهْب والقتل ، كانت سفينتهم « سنكو لاجاس » لا يحرسها إلاّ عشرة رجال ، أولا يحرسها بالأحْرَى إلاّ حارسان : واحد فى المقدمة والثانى فى المؤخرة ، أما الثمانية الأخر فقد كانوا صَرْعى الشراب والطعام . ولم يكن حتّى الحارسان على شىء من الحِرْص والحذر ، ففاتهما أن يشعرا بقدوم زورقين ممتلئين بالرّجال ، كانا قد انسابا فى خفّة ورشاقة على صفحات الماء ووصلا إلى مؤخرة السفينة .

وكان السلم الذى نزل منه الربان « دون دياجو » لا يزال منشوراً بين سطح السفينة وصفحة الماء . فلمح أحد الحارسين شَبَحاً ينبثق أمامه ، فظنه أحد مواطنيه قد قدم من المدينة فصاح قائلاً :

— « من هنا ؟ »

فقال « بلود » بإسبانية فصيحة :

— « أنا . » فقال الحارس وقد اقترب من الشَّبَح :

— « أأنت هنا يا " پدرو " ؟ »

فقال « بلود » وقد انحنى فأمْسَك بساقَى الحارس :

— « " بدرو " أو " بطرس " إنهما سيّان ! »

وسُمع بعد ذلك صوتُ جسم يسقط فى الماء ، وكان من سوء حظّ الحارس أنْ عصَفَ به سلاحُه الثّقيل فذهب به إلى قعْر البحر .

وصفر « بلود » صفيراً خاصاً ، فتجمع حوله رفاقُه العشرون ، واستطاعوا وهم فى مؤخّرة السفينة أن يروا شبح الحارس الثانى يروحُ ويجىء فى المقدمة ، وأن يسمعوا أصوات السكارى منبعثة من إحدى غرف السفينة تغنّى وتعربد.

وتفرّق هؤلاء الثُّوّار فى أنحاء السفينة ، وهم مسلّحون بالبنادق والسكاكين التى كان «بلود» قد أعدّها ليوم الفِرار ، ولم تطُل مهمّتهم ، فما عتّموا أن اجتمعوا ثانية بعد قليل ، وقد بعثوا بالحارس الثانى إلى أعماق البحر ، وقيّدوا الثمانية الآخرين بالسّلاسل والأغلال ، وطرحوهم فى قعر السفينة .

واستولى الثّوار على السفينة ، وأمعنوا فيها بحثاً وفحصاً حتى عرفوا خوافيها ومخابئها ، ووقفوا على ما فيها من زاد وعتاد ، وتسلم كل منهم العمل الذى يجيده فى قيادة السفينة فقد كان بين هؤلاء الثوّار ملاّحون مهرة .

وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة من استيلائهم عليها ، حتى أخبرهم الرجل الذى عينوه للحراسة ، أن هناك زورقاً مقبلاً إلى السفينة ، فاستعدوا لاستقبال من فيه .

وكان الزّورق يحمل « دون دياجو» وقد عاد بأربعة صناديق مملوءة بالذهب ، وعاد معه ابنه وستّة من الجنود .

وصل الزّورق إلى سلم السفينة ، فصعد فيه « دون دياجو » ولم يكَد يبلغُ سطحَ السفينة حتى فوجئ بضربة على أمّ رأسه ، سقط بعدها مغشيّاً عليه ،



فنقل بسرعة البرق إلى مقصورته القائمة فى وسط السطح .

وتبعه ابنه والرجال الستّة فكان مصيرهم مصيره ،أمّا الصناديق الأربعة فوضعت فى جانب من جوانب السفينة عند مدخل السطح :

وفى تلك اللحظة كان الحاكم « ستيد » ينظر إلى القراصنة الإسبان وهم يتزاحمون على ثمانية زوارق ركبوها من الميناء وعادوا بها إلى السفينة متساندين متقاربين وهم نصف سكارى. فلما صاروا فى منتصف الطريق ، وقعت على مقربة من أحد الزوارق قذيفة أطلقتها السفينة ، فدهشوا وقالوا : مَنْ ذلك المجنون الذى يحيي عودتهم بقذائف الحديد والنار . وبينما هم يسبون ويلعنون ، إذا بقذيفة ثانية وثالثة ورابعة تتساقط فى وسطهم ، وتبعث إلى أعماق البحر بخمسة زوارق وبمن فيها من رجال .

وأسرع مَنْ بقى حيًّا من أولئك الإسبان راجعاً إلى الميناء ، فاستقبلهم الأهلون أشنع استقبال ، بعد إذ صحوا من هول المفاجأة . وحدِّثْ عن دهشة سكان الجزيرة ولا حرج ، عندما رأوا العلم الإنجليزى يرتفع فوق سارية السفينة ، فأدركوا أن السفينة قد وقعت فى يد نصير لهم أو حليف ، ولكن تُرَى مَنْ يكون ؟ فأوفد الحاكم إليها الكولونل « بيشوب » يستطلع أمرها ، فذهب ومعه ضابطان من ضباطه .

فلما وضع قدمه فوق ظهر السفينة ، ورأى تلك الصناديق الأربعة ، سال لها لُعابُه ، ولم يَدْرِ لأول وهلة أن أولئك الجنود المحيطين بها وهم فى

ملابسهم الإسبانية ، إنما هم عبيده الثوّار الذين يشتغلون فى مزارعه .

فسمع صوتاً مهذباً يقول له :

ـــ « أهلاً وسهلاً بك يا سيّدى الكولونل ! لاتخدعنك ملابسنا الإسبانية ، فقد اقترضناها من رجال السفينة ولبسناها تكريماً لك وحفاوة بك . فأنت بين أصدقائك القدماء ! »

خُيِّل إلى الكولونل أنه يعرف هذا الصوت الذى يخاطبه ، فتفرس مليًّا فى صاحبه ثم صاح مدهوشاً :

ـــ « " بطرس بلود " ؟ ! إذن أنت . . . »

فقاطعه « بلود » قائلاً :

ـــ « نعم أنا وأصدقائى . . . »

ـــ « إن هذا لمن العجب العجاب . . . بهذه الحَفْنَة من الرّجال تستردُّ صناديق الذهب الأربعة وتستولى على السفينة . . . إنك وهؤلاء الرجال لتستحقُّون مكافأة سنيّة . . . »

فقال « بلود » متهكماً :

ـــ « وما مقدار المكافأة السنية وما نوعها ؟ »

فقال الكولونل :

ـــ « سأطلبُ من سعادة الحاكم أن يكتب إلى لندن ويسألها تخفيف عقوبتكم . »

فقال أحد الرجال :

— « نحن نعرف كرَمَ الملك "جاك" ! »

وقال آخر :

— « ونعرف عدالة الكولونل ! فما كنَّا لننسى طعْمَ سياطه ! »

فقال « بلود » :

— « هذا صحيح يا سيّدى الكولونل ، فالفتى "پت" الذى لا تراه بيننا ، إنما هو طريح الفراش فى إحدى الغرف وظهره فى لون قَوْسَ قُزَحَ ، وهذا من فضل سَوْطك الكريم ! »

فقال آخر :

— « ولماذا نُطيلُ الحديث مع هذا الكولونل ، بل مع هذا الوحش الضّارى ، هيا نشنقه فوق أحد السَّوارى . »

فاضطرب الكولونل اضطراباً شديداً فقال « بلود » :

— « أيها الرفاق ! لا تنسوا أننا اتفقنا على أن أكون الحاكم المطلق على ظهر السفينة . . . »

ثم التفت إلى الكولونل والضّابطين اللذين معه وقال :

— « سيدى الكولونل ! سنحتفظ بك رهينةً حتّى نبتعد عن الميناء ونصبح فى وسط البحر ، وذلك خشية أن تعود مدافع الحصن إلى إطلاق القذائف . أما أنتما يا سيدىّ الضابطين فلكما أن تعودا من حيث جئتما . . »

فلم يعترّض الضّابطان على هذا الأمر ، فنزلا من السّفينة وعادا بالزّورق الذى جاءا به .

وأنهى الربّان « بلود » بأوامره إلى رجاله ، فانتشرت على الفور أشرعة السفينة ، و رُفعت المِرْساة ، ودارت المحرّكات ، وأخذت السفينة تتحرّك مبتعدةً عن الميناء .

وما إن أصبحتْ خارج الميناء حتّى قال « بلود » للكولونل :

— « أتعرف السّباحة يا سيّدى الكولونل ؟ »

فاحتقن وجه الكولونل ، وكاد ينفجر غيظه المكتوم ، فاستأنف « بلود » يقول :

— « إنك على مسافة قريبةٍ من الميناء ، فتستطيع أن تجتازها سباحةً . وهَبك لا تعرف السباحة فإن بدانتك كفيلة بأن تطفو بك على صفحة الماء . »

وأشار « بلود » إلى الكولونل إشارة تدعوه إلى معانقةِ الماء، فنظر إليه نظرةً تطايرتْ بشرر الحقد والبغضاء ، فخلع ملابسه وقذف بنفسه إلى البحر ، وأخذ يسبحُ عائداً إلى الشاطئْ .

وتذكر « بلود » أن هذا الرجل البغيض إنما هو عمّ الآنسة « أرابلا » الحسناء الرفيعة الخِلال فشقّ عليه أن يكون الشيطان عمّاً لِملَك كريم .

وتابعت السّفينة مجراها . . .



٥

صحا «دون دياجو» فى صباح اليوم التّالى، على أشعّة الشّمس المتسرّبة من كُوَّةٍ صغيرة، فرأى نفسه فى سريره ومقصورته من السّفينة «سنكو لاجاس» فحاولَ أن يتذكر ما جرى له منذ أنْ عاد إلى السفينة، غير أن الصُّداع الذى كان مستولياً عليه حالَ بينه وبين التّفكير.

وبينما كان على مثل تلك الحال من الألم وصعوبة التذكُّر، إذا به يرى بابَ المقصورة يُفْتَح، ويدخل منه رجلٌ يرتدى أجمل بذلة كانت لدى «دون دياجو» فعرفها على الفور بقماشها الأسود الجميل وأشرطتها الذهبيّة. فحملقَ فيمَنْ يرتديها، فإذا هو رجلٌ شبيه به فى طولِ قامته، ونُحولِ بدَنه، ثم تقدم الرجل منه وجسّ رأسه وقال له بالإسبانية:

— « ألا تزال تتألم ؟ »

ولم يكتف بذلك بل أخذ يفحصُ نبضَه فقال له « دون دياجو » :

— « أأنتَ طبيب ؟ »

— « أمارسُ مهنةَ الطبّ ممارستى لكثير من المِهَن غيرها . »

— « ومن تكون أيُّها الرجل الذى يرتدى ملابسى ، و يدخل علىّ فى مقصورتى وعلى سفينتى ! »

فتبسم الرجل وقال :

— « يلوحُ عليك يا سيدى أنك لا تزال تهذى . . . فهذه السّفينة ليست لك وإنما هى سفينتى . . . وهذه الملابسُ هى كذلك ملكُ يدى . »

فقال « دون دياجو » مستغرباً مدهوشاً :

— « سفينتك ؟ ! وملابسك ؟ ! أليست هذه السفينة " سنكولاجاس " لعلك تزعمُ بعد هذا أنك " دون دياجو " . »

فقال الرّجل :

— « كلاّ لن أزعُمَ هذا . . . فأنا الرُّبَّان" بلود "وهذه السفينة هى سفينتى . وهذه الملابس الفاخرةُ هى ملابسى . بحكْمِ حق الغزو والاستيلاء . أما أنت فإنك أسيرى . »

— « لستَ إذن رجلاً إسبانيًّا . »

— « كلا ، فأنا رجلٌ إرلندىّ وإن كنتُ أجيدُ التكلّم بالإسبانيّة .

ولعلك تَوَدّ أن تعلم أية مُعْجزة حدثتْ فقلبت الأوضاع ، وجعلتك تفقدُ سفينتك . فاعلم أ نّي أنا صاحبُ المعجزة . . . »

ثمّ أخذ « بلود » يقصُّ على « دون دياجو » في عبارةٍ موجزة ، كُلّ ما حدث ، فكان يستمع إليه والعرق الباردُ يتصبب من جبينه ، وختم « بلود » حديثه بقوله :

— « إن وجودَك يا سيّدى بيننا ، ووجودَ رفقائك المقيّدين بالأغلال والمطروحين في قعْرِ السّفينة ، إنما هو عالةٌ علينا ، فالزّادُ كما تعلم غيرُ كثير في هذه السفينة ولا قِبَلَ لنا بإطعامكم ، فلا بُد أن نلقيكم في البحر مُكْرَهين . . . . »

وكان « دون دياجو » يسمعُ هذا الكلام في شِبْهِ ذهول ، ثم استوضح محدِّثَه أمرَ ابنه ، فعلم أنه حيٌّ يُرْزَق ، وأنه في عداد الأسرى .

واستأنف « بلود » حديثه فقال :

— « على أن هناك وسيلةً تستطيعون بها الإبقاءَ على حياتكم . . . »

فتطلّع الإسبانيُّ إلى « بلود » فاغراً فاهُ ، وتابع « بلود » كلامه فقال :

— « إنّ الملاّح الذى نعتمد عليه في قيادة السفينة ، مريضٌ خائرُ القوى ، فلو أقسمت لنا بشرَفك أن تقود السفينة إلى جزيرة "كوراسو" أبقينا عليك وعلى ابنك و رُفقائِكَ . »

فتهلّلَ وجه « دون دياجو » بِشراً ، وقبل الاقتراح المعروضَ عليه ،

فأطلق « بلود » سراحه ، وأقبل الإسبانيُّ على قيادة السفينة فَرِحاً مسروراً ، وأظهر للرُّبان « بلود » وزملائه من المودّة ما جعلهم يميلون إليه ويثقون به.

وحالما تسلّمَ القيادة ، ورأى السّفينة سائرة إلى الشرق على عكس اتّجاه الرّيح ، بيّن للرُّبّان «بلود »وزملائه أنّ في سَيْر السّفينة على هذا النّحو خطراً كبيراً ،فضلاً عن أن البحر فى هذا الاتجاه لا يخلو من السُّفن المترصِّدة المترقّبة للغَزْو ،فى حين أنّ حالَ السفينة وَعَدَدَ رجالها لا يسمحان بالدفاع عن نفسها إذا هُوجمت ، فالأولى اتباع طريق آخر للوصول إلى جزيرة « كوراسو» ولن يطول ذلك عن ثلاثة أيام . فأمّنَ « بلود » وزملاؤه على كلامه .

وانقضت الأيامُ الثلاثة والسّفينة لاتزال تمخُر عُبابَ الماء، وما من أثر للأرض، فضاق « بلود» ذَرْعاً ، وكان كلّما استوضح « دون دياجو» الأمْرَ قال له هذا : « سنَصِلُ غداً . »

ونزل « بلود » إلى حيث كان الفتى « پت » المريض فرآه على حال متحسِّنة ، فقد انقطعت عنه الحمّى وأخذت جراح ظهره تلتئم ، وبدأ يشعرُ بالصحّة تعودُ إليه، فطلب أن يُحْمَل إلى ظهر السفينة فِراراً من الجو الخانق فى غرفته ، فأجابه « بلود » إلى ما طلب .

ولما صار على ظهر السفينة ، أخذ يملأ رئتيه بالهواء النقيّ ، ويتطلّع إلى السماء الزّرقاء ونجومها الجميلة ، ثم استدار فجأة إلى « بلود » وقال له :

ـ « قلت لى إننا ذاهبون إلى جزيرة "كوراسو" متّبعين طريقَ الجنُوب وإننا سوف نستديرُ منها عائدين إلى الشرق، ولكنّنى أرى السفينة تتّجه إلى الشمال بل إلى الشمال الغربىّ ، ودليلى على ذلك هذا الوضعُ العالى الذى ترى عليه نَجمْ القطب . . . »

فنهض « بلود » وهمّ بالكلام بعد إذ اصفرّ وجهه قليلاً ، فرأى « دون دياجو» يخرج من مقصورة القيادة ، وينزل درجات السلم المفضية إلى ظهر السفينة ، فاستدعاه « بلود » فأقبل فقال له :

ـ « تعال احكُمْ بينى وبين صديقى "پت" فى مسألة نَجمْ القطب ، أوَضْعُهُ هذا دليلٌ على أننا نتجه إلى الجنوب أم إلى الشمال ؟ »

فقال « دون دياجو » دون تردد ولا تلعثُم :

ـ « دليلٌ على أننا نتجه إلى الشمال بل إلى الشمال الغربىّ ، ولا أكتمك يا عزيزى "بلود" أنه سهِى عن بالى عند الظّهر أن أحدّد مركز السفينة ، فاتّجهتُ هذا الاتجاه ، وقد كنتُ أرجو أن لا يلتفت أحد إلى هذا الخطأ ريثما أصحّح الوضع . . . وكيفما كان الأمر ، فسوف تلوحُ لنا الجزيرة فى صباح غد . . . »

كان الجواب جليّاً واضحاً ، فاستأصلَ كلّ ريبة علقَتْ فى النّفوس.

وقُبيْلَ مطلع الشمس فى صباح اليوم التالى ، كان « بلود » على ظهر السفينة يحدّق فى الأرض التى لاحتْ لعينيه ، ولكنه لم يكَد يرى

ذلك الخطّ الأخضر المستطيل الذى يملأ الأفق من الشرق إلى الغرب ، حتى قطّب حاجبيه ، فجزيرة « كوراسو » ليست على مثل هذه المساحة الطويلة .

وبينما هو يُمْعِنُ فى التفكير لفتت نظره سفينةٌ ضخمة تقتربُ من سفينته ، ثم سمع صوتاً يقول له بلهجة ساخرة :

— « ها هى ذى أرضُ الميعاد . . . »

فالتفت إلى مصدر الصوت ، فرأى « دون دياجو » يبتسم ابتسامةً نكراء ، فسار إليه مغيظاً مُحْنَقاً وهو يقول له :

— « أيُّها الخائن القذر ! أتريد أن أقولَ لك إلى أين جئتَ بنا ؟ إلى جزيرة "كوبا" أو إلى جزيرة "إسپانيولا" ولعل هذه الجزيرةَ الثانية هى الأصحُّ لأنها كانت الأقرب إلينا . . . »

اصفرّ وجه « دون دياجو » وتراجع قليلاً إلى الوراء ، ثم هجم على « بلود » وهو يقول له :

— « أيها الكلبُ الإنجليزى ! إنك لتعرفُ أشياء كثيرة ! »

والتحمَ الرَّجُلان جسماً بجسم وتدحرجا معاً إلى أرض السَّفينة غير أن « بلود » كان أصْلَبَ عوداً ، وأقوى عَضلاً ، فما هى إلا دقائق معدودات حتى كان الإسبانى منطرحاً إلى ظهره ، ، وركْبة « بلود » فوق صدره ، ولكنه مع ذلك كان يبتسم فما عتّم أن خاطبَ غريمَه قائلاً :

— « أتدرى أيُّها الإنجليزى الوَقِح أيَّة سفينة هذه التى تقترب منا ؟ إنها سفينة شقيقى "دون ميجل" أمير أساطيل قشتالة . . . »

فتجهَّم وجه « بلود » ونهض عن خصمه ، ونهض الإسبانىّ بعده ، ولكن رجال « بلود » استداروا حوله على الفور ، وهمُّوا أن يفتكوا به ، فوقَفَهم « بلود » واتجه بنظره إلى السَّفينة التى تقترب منهم فقال لمن كان حوله :

— « لن يمضى نصفُ ساعة حتى تُدرِكنا سفينةُ أمير الأساطيل . »

فقال أحد رجاله :

— « لنستعدّ إذن للقتال ! »

فقال « بلود » :

— « ومَنْ لنا بقتال سفينةٍ كبيرة مزوَّدة بالعتاد والرِّجال ، ونحن لا نزيد عن عشرين رجلاً ؟ »

فقال آخر :

— « نرسل إذن إلى أمير الأساطيل شقيقه " دون دياجو " يقنعه بأنَّنا قومٌ مخلصون لصاحب الجلالة ملك إسبانيا » .

فوثب « بلود » من مكانه واستنار وجههُ وقال :

— « إنك لعلى صواب . . . ولكنك مخطئٌ فيمن نبعثه إلى أمير الأساطيل . »

وأمر « بلود » بعض رجاله فنزلوا بالأسير الإسپانى « دون دياجو » إلى غرفة المدافع ، فربطوه إلى فُوّهة أحد تلك المدافع ، ثم أمر فجيء ببقيّة الأسرى ، فلما شاهدوا زعيمهم على تلك الحال ، صاح أحدهم مُرَوَّعاً :

— « أبى ! »

كان صاحب ذلك الصوت الهالع ابن « دون دياجو » ويسمّى « دون إسطبان » فأخذ يستغيثُ بالرُّبان « بلود » ويتوسّل إليه أن يُبقى على حياة أبيه فقال « بلود » :

— « لا أنوى أن أرسل أباك يا فتى إلى حيث يستحق أن يُرْسَل . . . إن خيانة أبيك هى التى قرّبتنا من سفينة عمك أمير الأساطيل الإسپانية ... فعمّا قريب ستصل إلينا ، وسيعرف عمُّك عددَنا القليل ، ولسوف يُصْلينا ناراً حامية . ومهما كان الأمر ، فسوف ندافع عن أنفسنا ، ولكن اعلمْ أن أوّل طلقة مِدْفع ترمينا بها سفينة عمك ، فسوف نجيب عنها بهذا المدْفع المربوط أبوك إلى فُوّهتِه . . . »

فاضطرب الفتى أيما اضطراب ، وقال وقد علته صُفْرةُ الأموات :

— « أما من سبيل إلى تجنُّب القتال ؟ »

فقال « بلود » :

— « هناك سبيلٌ واحدة وهى أن يذهب أبوك "دون دياجو" فيقنع أخاه بأن كلّ شىء على ما يُرام فى هذه السفينة ... ولكن "دون دياجو"

لا يستطيع الذهاب . . . لنفرضْ أنه طريحُ الفراش يُعانى وطأة حمّى شديدة . . . فلم يبق إلا أن تستقلّ أيها الفتى أحد الزّوارق ، ويصحبك فيه ستة من رجالكم الإسپان ، وأكون أنا بينكم .. . فإن عدتُ سليماً إلى هذه السفينة ضمنتُ حياة أبيك وحياةَ بقية الأسرى وإلا فإن " دون دياج " سيكون أول ضحية لما قد ينشبُ بين السفينتين من قتال . »

صمت « دون إسطبان » قليلاً تتنازعهُ عوامل شتّى ، ثم أمرّ لسانه على حلقه الجافّ وقال :

— « قبلتُ ما تعرض عليّ يا سيّدى . . . »

وبعد برهة قصيرة ، كانت السفينتان على مسافة قريبة بينهما ، وكان أحد الزّوارق يسيرُ إلى سفينة أمير الأساطيل وقد حمل «دون إسطبان» و « بلود » وستة رجال من الإسبان كانوا يجذّفون فى همّة وحماسة ، وكان « بلود » قد حمل معه أيضاً صُندوقين مملوءين بالذّهب ليهديهما إلى أمير الأساطيل وهذان الصّندوقان هما نصف الجزية التى كان فرَضَها «دون دياجو» على ميناء « كارليل » .

واقترب الزّورقُ من السفينة ، فقفز « دون إسطبان» إلى السلّم يتبعه الرُّبان « بلود » وكان أمير الأساطيل ينتظرهما على ظهر السفينة ، فهجم على ابن أخيه يُعانقه ويقبّله ثم سأله :

— « وأين أخى ؟ »

فقال « دون إسطبان » :

— « يعزُّ عليَّ أن يُحْرَمَ لقاءَك يا عمَّاه! ولكنه طريح الفراش... »

فقال أمير الأساطيل :

— « إن كان أخي لا يستطيع الحضور إليَّ فعلى أن أذهب إليه ... »

فتحيَّر « دون إسطبان » ولم يَدْرِ بماذا يجيب ، فأنقذ « بلود» الموقف وقال :

— « لا يمكنك يا سيدى أن ترَى أخاك قبل أن تشفى جراحُه . . . تلك هى رغبته . . . على أنه يرسل إليك صُندوقين من الذهب كان قد ظَفِرَ بهما فى هجومه على أحد الموانئ الإنجليزية ، وإنهما فى الزَّورق الذى أقلنَّا إليك . »

فقال أمير الأساطيل :

— « لا يهمنى أن أعرف مصدر هذا الذَّهب ، فإنَّما هو وديعة لأخى عندى ، بل إنما هو مسألة عائلية أرادنى أن أنوبَ عنه فيها ، أما أنه سَلَبُ غزوة من الغزوات شنَّها أخى على الإنجليز فما سمعتْ أذناى شيئاً من هذا ، فالوئامُ والسلام مستتبَّان بين ملك الإنجليز وجلالة ملك إسپانيا ... فهل تقبلان دعوتى لشرب كأس من الشراب فى مقصورتى ريثما ينقل الرجال الصُّندوقين إلى السَّفينة . . . »

فقال « دون إسبطان » :

— « طلب إلينا والدى أن لا نتأخَّر ، فهو مضطرٌ إلى استئناف السفر سريعاً ، فاسمح لنا يا عماه بالرُّجوع . . . »

فأذعنَ العمُّ لرجاء ابن أخيه ، فودَّعَهُ وقبَّلهُ ثم تقدم بلود » من أمير الأساطيل وحياه تحيةً طويلة ، ثم استقلَّ الرجلان وصحبُهما الزَّورق ، وعاد واجمياً إلى سفينتهم .

وقُبَيْل أن يبتعد الزَّورق من سفينة أمير الأساطيل سمع «بلود » صفيراً صادراً منها ، أعقبه ضجةٌ كبيرة هي ضجةُ الاستعداد للرَّحيل ، وما هي إلا دقائق قليلة حتى نشرت «السَّفينة أشرِعَتَها وسارت تخترقُ الأمواج.

وصل « بلود » وصحبه إلى السفينة « سنكو لاجاس » فكان فى استقباله أحدُ رجاله الذى عينه مساعداً له ، فما كاد يطأ بقدمه ظهر السفينة ، ويتبعه « دون إسطفان» حتى سأل متلهفاً :

— « ما حال " دون دياجو " »

وكرَّر « دون إسطبان » السؤال وقال له جازعاً قَلِقاً :

— « أجل أين أبى ؟ هل نكثتم يا قومُ عهدكم ؟ »

فقال مساعد « بلود » :

— « لم ننكث عهدنا . . . إن" دون ديا جو" قد أسلَمَ الرُّوح قبل أن تصلوا أنتم إلى سفينة شقيقه . »

فصاح الفتى « دون إسطبان » :



— « أسْلَمَ الرُّوح ؟ ! »

فقال « بلود » :

— « نعم لقد مات من الخوف والفَرَق . . . إنى لحظتُ ذلك على وجهه قبل أن نغادر السَّفينة . . . ألم تلحظ أنت ذلك يا " دون إسطبان " ؟ »

فقال « دون إسطبان » غاضباً متوعِّداً :

— « لو كنتُ لحظتُ ذلك لكنْتَ الآن يا سيِّد " بلود " مشنوقاً على سارية من سوارى سفينة عمِّى . ولكن لعلَّنا نلتقى فيها يوماً من الأيام . »

وفى مساء ذلك اليوم ، عقد الثُّوّار اجتماعاً برياسة الرُّبان « بلود » وقرَّروا أن يسيروا بسفينتهم إلى جزيرة السُّلحفاة ملجأ القرصان ، لأن جزيرة « كوراسو » لا تزال بعيدة ، وليس لديهم من الزاد ما يمكِّنهم من الوصول إليها .

وقرَّروا كذلك أن يُنْزِلُوا الأسرى وعلى رأسهم « دون إسطبان » إلى أحد الزّوارق ، ويتركوهم إلى مصيرهم ، بعد أن تجتاز السفينة نَحْواً من عشرين ميلاً من ذلك الميناء . . .

وبعد يومين كانت السفينة « سنكو لاجاس » تدخل ميناء « كايانا » فى جزيرة السُّلَحفاة .



٦

كانت جزيرة السُّلحفاة إحدى الجُزُر التابعة لفرنسا، وكان ميناء « كايانا » ملجأً حصيناً للقراصنة يلتجئون إليه، وكانت فرنسا تساعدهم سرًّا على غزو السفن الإسبانية وسلْبِها.

ولمَّا وصل « بلود » إلى ذلك الميناء كان جُلُّ همِّه أن يجد سفينةً قاصدةً إلى فرنسا أو هولنْدا، فيركبها ويرحل إلى أحد هذين البلدين، ولكنه مكث ينتظرُ أسابيع طويلة دون جدوى، حتى نَفِدَتْ مواردُهُ، وأخذ اليأس يَدِبُّ إلى فؤاده . . .

وما برحتْ صورةُ الفتاة « أرابلا » تملأ قلبَه وذهْنه وخياله، غير أنّه ما كان يأملُ لحظة واحدة أن تشاطره « أرابلا » حبّه وهيامه، وهذا

ما كان يدعوه إلى الرَّغبة فى الرَّحيل إلى أوربَّا لينساها .

ألَحَّ الثُّوَّار على « بلود » فى أن يبقى معهم ، ويكون زعيمهم ، وأقسموا له بالأيْمان المغلظة أن يطيعوه طاعة عمياء ، وأن يتبعوه حيث أراد .

وقبِلَ « بلود » ذلك العَرْض بعد مقاومة عنيفة بينه وبين نفسه ، وكان خيال « أرابلا » نصْبَ عينيه وهو يفكِّر فى شأنه ، وكان يعرف أنها ستحتقره وتزدريه يوم تعلم أنه أصبح قُرْصاناً ، فحمله خيالُ تلك الفتاة النَّبيلة ، حين قرَّر أن يعتنق ذلك المصير ، إلى أن يُقْسِم لنفسه ليكونَنَّ عفيف الأهواء ، فلا يرتكب إثماً ولا يقترف جريمة على غير طائل .

وهكذا انقلب الطبيب « بلود » إلى قُرْصانٍ من قراصنة البحر ، وخاض غِمارَ الغزو والمغامرة .

وكان الحاكم الفرنسىّ للجزيرة ، يتناول على حمايته القراصنة بعض الجزية منهم ، كما كان يشاركهم فى غنائمهم وأسْلابهم ، فعرض على « بلود » مبلغاً من المال لتسليح سفينته « سنكو لاجاس » فقَبِل وسمَّاها « أرابلا » وأضاف إلى رجاله ستِّين قُرْصاناً انتقاهم من تلك الجزيرة ، وأخذ عليهم الشُّروط التى أراد ، فانخرطوا فى سِلْك خدمته .

وفى أواخر شهر ديسمبر انطلق « بلود » يجوب بسفينته البحار ، ويستسلم إلى الغَزو والنَّهب . ولما عاد إلى جزيرة السُّلحفاة فى شهر مايو من السنة

التالية محمَّلاً بالغنائم ، كان صَدَى شجاعته وبطولته وأعماله الباهرة قد سبقه إلى الجزيرة ، بل كان ذلك الصَّدَى قد تجاوز البحار فوصل إلى أوربَّا ، وأصبح حديثَ الناس وشُغْلَهم الشَّاغل ، حتّى إن سفير إسبانيا فى لندن قد احتجَّ إلى الحكومة على أعمال « بلود » فقيل له إن الرُّبَّان « بلود » ليس من عُمَّال ملك بريطانيا ، وإنما هو ثائرٌ عَبدٌ هارب ، فكلُّ عمل تعمله الحكومة الإسبانية فى سبيل الضرب على يديه ، يؤيِّده الملك جاك الثانى .

وكانت هذه الأخبار تصل إلى « بلود » فلا يحفِلُ بها . كذلك وصل إليه أن « دون إسطبان » وعمه أمير الأساطيل قد أقسما على أن يأسراه حيًّا ، ويشنقاه على سارية من سوارى سفينة الأمير ، فما اكترث « بلود » لكلِّ تلك الأنباء .

وعاد « بلود » إلى جزيرة السُّلحفاة ليصلح ما أصاب سفينته من عطَب ، فبينما هو فى يوم من أيام جالسٌ إلى اثنين من رجاله فى إحدى الحانات ، إذ تقدَّم منه رجل ، فى رِداءٍ أحمر ، مزيَّن بالأوسمة المرصَّعة بالذهب وقال له :

— « أأنت المدعوّ " بلود" ؟ »

فحدَّق « بلود » فى الرجل قبل أن يجيبه ، فرآه طويل القامة ، مفتول السَّاعدين ، قوىَّ الأجْلاد ، خفيف الحركة ، قد وضع كفَّه على مقبضِ

سيفه . وتألـّق فى إصبعه خاتم من الألماس باهرُ الشّعاع . فلما فرغ « بلود » من التّحديق فيه قال له :

ــ أجل أنا " بطرس بلود " . »

فلم ينتظر الرجل الغريب حتّى يأذن له « بلود » فى الجلوس ، بل جلس إزاء « بلود » وقال له :

ــ « أنا " لوفسُّور " ولعلك سمعت بى قبل اليوم ! »

وكان « بلود » ورفيقاه يعلمون أن « لوفسُّور » هذا رُبّان سفينة ذات عشرين مدفعاً ، جاءت قبل مجيئهم بعدّة أيام ، وكانوا يعلمون أيضاً أن ملاّحيها هم من الفرنسيين الذين طردهم الإسبان من جزيرة « إسپانيولا » وأن ربّانهم هذا مشهور بالشجاعة والقوّة والجرأة ، حتى إنه طلب يد الآنسة « مادلين » ابنة حاكم الجزيرة المسيو « أوجيرون » فطرده أبوها ، فأقسم ليتزوّجنّ ابنة الحاكم ولو اتّحد عليه جميعُ الآباء فى العالم .

هذا هو الرجل الذى جاء يقترحُ على «بلود» أن يكون شريكه فى السّرّاء والضّرّاء ، وفى الغزْو والنّهْب. فلم يجبه « بلود » لأوّل وهْلة إلى ما طلب . بل وعده أن يفكر فى الأمر . ذلك أنه قد شعر نحو هذا الرجل بكراهية طبيعيّة لم يعرف سببها ، غير أن عرْضَه السخىّ ، وضمّ قوّاته إلى قُوّات « بلود » ليس بالأمر الذى يُرْفَضُ دون تروٍّ ولا تفكير .

ومضى على هذا اللقاء أسبوع كانت المفاوضات فيه دائرة بين

الرّجلين ، حتى انتهيا إلى الاتفاق والتّوقيع على عقدٍ بينهما يشرك الرُّبّانين ورجالهما فى المغامرة واقتسام الأسلاب .

وفى صباح اليوم الذى اتّفق الرّجلان فيه على الإبحار ، كان «لوفسّور» يتمشّى على ظهر السفينة « الصاعقة » فرأى زورقاً يقتربُ من السفينة ، ويصعد منه إليها عبدٌ أسود يطلب مقابلة الرُّبّان ، فلما مثَلَ بين يديه ، قدَّمَ إليه رسالة ، ففضها وهو مبتسم وقرأ فيها ما يلى :

« يا حبيبى

أنا على ظهر السفينة الهولنديّة "يونجرون" التى ترفع مرساتها استعداداً للسفر . إن والدى يرسلنى إلى فرنسا فى صحبة أخى ليحول بينى وبينك إلى الأبد ، فأنقذنى يا بطلى العزيز

حبيبتك المحبة الأسيفة

مادلين»

وبينما كان العبد ينزل سلّم السفينة عائداً إلى زورقه ، كان « لوفسّور » قد انتهى من قراءة الرسالة ، فأجال بصره فى الميناء فوقع على السفينة الهولندية ، فرآها قد نشرت أشرعتها ، وأخذت تبتعد رويداً رويداً عن الميناء ، فجُنَّ جنونُه ، وصاح فى رئيس الملاّحين :

ــ « ليذهب كلٌ إلى مكانه فقد عزمتُ على المسير . . . »

وشعر « لوفسّور » على الأثر بيدٍ توضع على كتفه ، وبصوتٍ

يقول له :

ـ « على رِسْلك يا سيِّدى ! . . . »

فالتفت « لوفسُّور » فرأى معاونه ينظرُ إليه نظرةَ المحتجِّ المعترض، وسمعه يتابعُ كلامه ويقول : « سفينة هولنديّة ؟! هذا مُحال . »

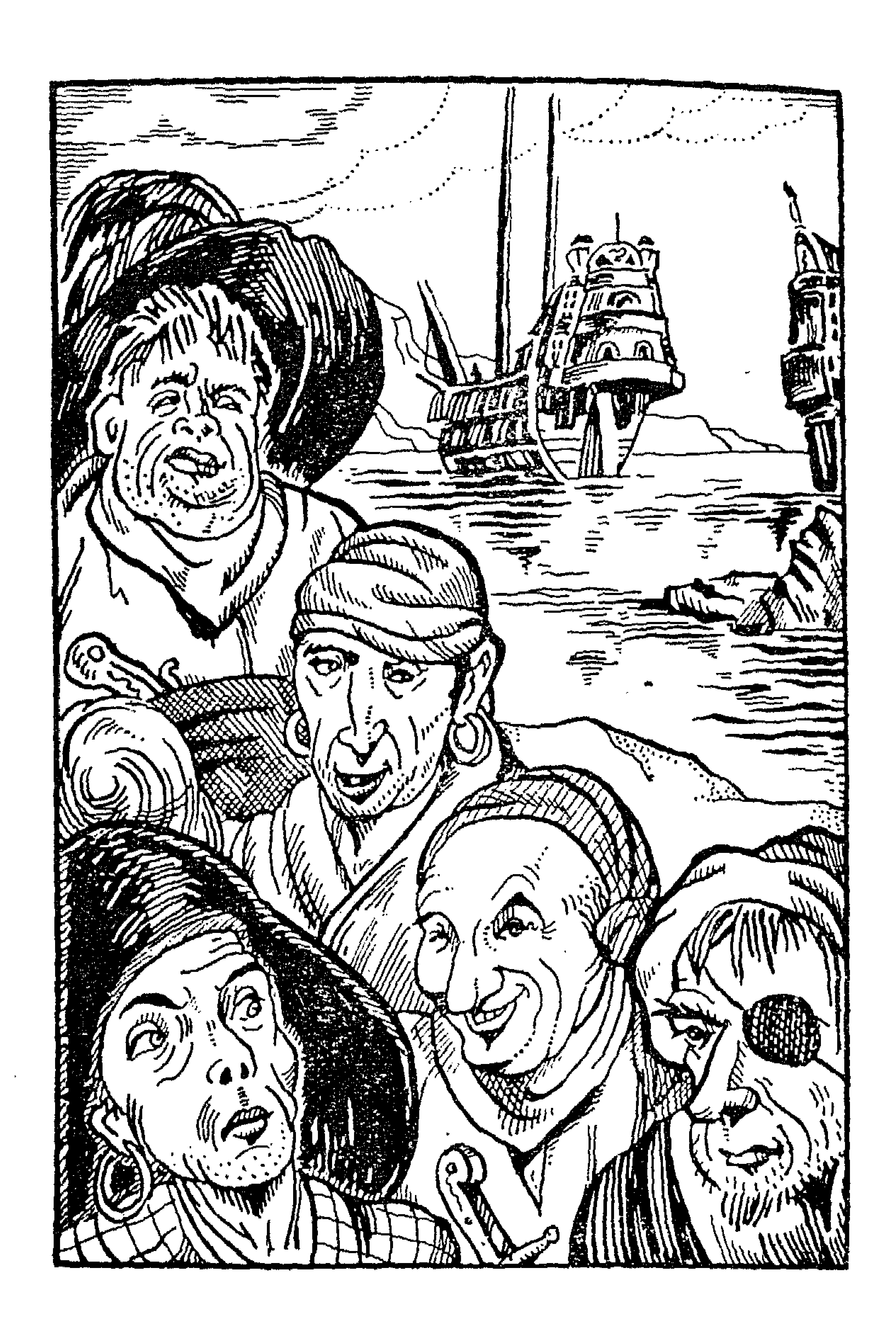
فصاح فيه « لوفسُّور » وهو ساخطٌ حانق : « ومن ذا الذى يمنعنا ؟ »

ـ « جميع ملاّحى السفينة الذين يؤثرون العودة إلى هذا الميناء وهم سالمون غانمون . . . ثم لا تَنْس أنّ هناك الرُّبّان " بلود " »

ـ « ما كنتُ لأحفل بهذا الأبْله . . . »

وبعد قليلٍ سارت « الصاعقة » تتبعها «أرابلا» فإن الرُّبّان « بلود » لما رأى شريكه قد رفع المرساة وهمّ بالمسير ، حذا حذْوَه دون أن يسأله عن السّبب . واستمرت السفينتان تسيران وراء السفينة الهولنديّة طول النهار والليل ، حتى ضربت السفن الثلاث فى عرض البحر .

وأشار « لوفسُّور » على « بلود » أن يعرِّج إلى اليمين ، ويتوجّه إلى بعض الجزر ، وينتظره هناك ففعل . وعند الفجر كانت « الصاعقة » على بُعد ميلٍ واحدٍ من السفينة الهولندية ، فأدرك رُبان هذه أنه هدفٌ لبعض القُرْصان ، فزاد من سرعة سفينته طلباً للهرب ، غير أن « الصاعقة » كانت أقوى أشرعةً فسبقتها ثم استدارت إليها وباغتتها بإطلاق قذيفة عليها، فجاوبتها السفينة الهولندية بطلقات عدّة من مدافعها، ثم التحمت السّفينتان ، فخفّ« لوفسُّور » ومعاونه إلى



السفينة الهولندية يتبعهما عددٌ من الملاحين ، فصاح الربان الهولندى فى وجه « لوفسور » وقال : « أيها السيد" لوفسور" إن عملك هذا إهانة لا تغتفر ! ماذا جئت تطلب فى سفينتى ؟ »

فحدق « لوفسور » فى الربان الهولندى ، وفى الفتى الذى وقف وراءه ، فعرف فيه ابن الحاكم « أجيرون » فقال :

ــ « جئتُ أطلب ما أبتغى . . . وبما أنك قد دافعتَ عن نفسك فإنى أعدُّ سفينتك غنيمة شرعية من غنائم الحرب . »

وفى هذه الأثناء بدت الآنسة « مادلين » فى شُرْفة مقصورتها وهى تنظرُ إلى بطلها نظرات الإعجاب ، فرآها « لوفسور » فصاح فرحاً وطار إليها ، فاعترض ربان السفينة طريقه ، فعاجله «لوفسور» بضربة ساطور على أمّ رأسه جدّلته صريعاً ، ثم قفز من فوق الجثة وخف إلى حبيبته .

وكانت هذه قد شاهدت ذلك المنظر الفظيع ؛ فاضطربت من رأسها إلى أخمص قدمها ، فلما وصل إليها «لوفسور» وحاول أن يضمها إلى صدره ، وقفته وبادرته قائلة : « لماذا قتلته ؟ ! »

ــ « أراد أن يحول بينى وبينك فاستحق الموت . . . »

وطغى الحبُّ على فؤاد الفتاة ، فأغمضت عينيها مستسلمةً حينما حملها « لوفسور » بذراعيه ، وسار بها إلى سفينته . وكان معاونه قد ربط الفتى

«أوجيرون» بالحبال ، ورماه فى إحدى الزوايا من «الصّاعقة» وعاد إلى السفينة الهولندية ، وألزم بحّارتها أن يستقلّوا الزّورق الكبير ، ويسيروا فى حراسة المقادير ، واستبدل بهم نفراً من رجاله أحلّهم فى السفينة الهولندية محلّ بحّارتها ، ثم سارت بعد قليل وراء «الصاعقة» التى عادت أدراجها فى طريقها إلى جزيرة العذراء .

ألقى «لوفسّور» بكل هذه الأوامر إلى معاونه عندما كان سائراً بالفتاة «مادلين» ، فلمّا أوصلها إلى الحجرة التى خصّصها بها ، وهمّ بتقبيلها ، كانت الفتاة قد أدركت خطأها الجسيم ، وعرفت أن حبيبها هذا ليس إلا وَحْشاً مفترساً ، فاقشعرّ بدَنُها ، وأخذت تدفعه عنها بيديها وهى تَجْهش بالبكاء

وسَمع فى تلك اللحظة قَرْعٌ على باب الحجرة ، فسار «لوفسّور» إلى الباب وهو يزمجر ، ففتحه فإذا بالقادم معاونه جاء يخبره أن بالسفينة بعض الثّغرات ينفذُ منها الماء إليها ، وأن جزيرة العذراء وإن تكن قد لاحتْ فى الأفق فهو يخشى مع ذلك أن لاتستطيع السفينة الوصولَ إليها .

فخرج «لوفسّور» مع معاونه وصَعدا إلى سطح السفينة ، فهالهما أن يلمحا عن بعد سفينتين مقبلتين إليهما ، فكتم «لوفسّور» أنفاسه خوفاً وخشية فقال له معاونه : «وماذا نعمل لو هاجمتنا هاتان السّفينتان ؟»

فقال «لوفسّور» : «نقاتلهما . . .»

وبعد مسيرةِ ساعة ، همَّ « لوفسُّور » أن يأمر رجاله بالاستعداد للقتال . فأخبره برجُ المراقبة أن إحدى السفينتين هي « أرابلا » فتنفَّس « لوفسُّور » الصُّعداء . أما معاونه فلم يرتح لذلك الخبر فحدَّق في رئيسه وقال له : « ماذا نحن قائلون للربُّان " بلود " ؟ »

— « لا شيء . »

— « ولكن سوف يعلم كُلَّ شيء . . . . »

— « لن يعلمَ شيئاً قبل إتمام المفاوضة مع الفتى " أوجيرون " »

ولم تنقضِ نصفُ ساعة على هذا الحديث حتى كانت السفن الأربع تطرح مراسيَها في ميناء جزيرةٍ قفراءَ جرداءَ هي جزيرة العذراء .

استقل « لوفسُّور » أحد الزَّوارق ، فسار به إلى السفينة « أرابلا » في صحبة معاونه ورجلين من رجاله ، فاستقبله « بلود » مسروراً ضاحكاً ، وقاده إلى مقصورته ، وأعلمهُ أن السفينة التي تصحبه هي السفينة الإسبانية « سنتياجو » وأنه أسرها واستولى على ما فيها من غنائم ، وسوف يقاسمه تلك الغنائم وفقاً لما بينهما من شروط .

على أن الربَّان « بلود » قطَّبَ حاجبَيْه لما علم أن شريكه قد هاجم سفينةً هولندية ، ولكنه استسلم بعد قليل إلى الأمر الواقع ، ثم اتفق الشريكان على أن يغادر « بلود » الميناء ، ويذهب بالسفينتين « أرابلا » و « سنتياجو » إلى جزيرة السلحفاة وعلى أن يلحق به شريكه حالما ينتهي من إصلاح سفينته .



٧

استيقظ « لوفسُّور » فى صباح اليوم التَّالى على جوٍّ صحْوٍ جميل، بعد عاصفةٍ هوجاءَ استمرّت طولَ الليل ، فعَـقد على باب خيمته مجلساً حربيّاً اشترك فيه رجاله .

وفى أثناء الأحاديث المشتَركة بين هؤلاء المتآمرين ، جاء عبدان بالفتى « أوجيرون » وهو موثوقُ اليدين ، فى حين كانت شقيقتُه جالسةً فوق الرِّمال على بُعْد من هؤلاء الرجال الغِلاظ ، وسيماؤها تدلُّ على ما تعانى من شعور الخوف والقلق ، فابتدر « لوفسُّور » الفتى وقال له :

ــ « لعلَّك فهمت يا فتى ما أطلب إليك ... سوف أُطْلِقُ سراحك

وأمكنك من الوصول إلى أبيك ، ولكن على أن تعودَ إلىّ بالجِزْية التى أطلبها ، وقدرها عشرون ألف قطعة من الذّهب ... وسأحتفظ بشقيقتك رهينةً عندى حتّى ترجع . . . »

فرفع الفتى رأسه وحدّق طويلاً فى ذلك القُرْصان الجرىء وقال له :

— « أرفضُ ما تطلب ، فإنما أنت قُرْصان لاشرفَ لك ولاذِمَام.»

فقال « لوفسّور » :

— « أنسيتَ أيها الغلام أنّى أستطيع إسكاتَك وإخضاعك لما أريد؟»

— « كلاّ وألف مرّة كلا فما أنا من يَقْبلُ ما تعرضه علىّ . »

فنظر إليه « لوفسّور » شزراً ، وكان فى يده حبلٌ غليظٌ يلهو به ، فأخذ يجيل طَرْفه بين الحبْل وعُنُق الفتى فى وحشية وقسوة ، واتّفق أن رأته الفتاة وأدركت ما يجول بخاطره ، فتملكها الرعب ، وفَلَتَت منها صيحةٌ جازعة ، وخانتها قواها فانطرحتْ إلى الأرض .

واستأنف « لوفسّور » الحديث وقال :

— « كُنْ بصيراً رشيداً يا فتى ، فما قيمة مبلغ من المال لا يتجاوزُ عشرين ألف قطعة من الذهب؟ . . . إن ثروة أبيك طائلةٌ ضخمة ، واحمد الله على أنى لم أغالِ فى الطلب . »

وما إن لفظ كلمته الأخيرة ، حتّى سمع الحاضرون صوتاً ساخراً يقول :

— « ولماذا تطلبُ منه عشرين ألف قطعة من الذهب ؟ »

فالتفت « لوفسّور » ورجاله إلى مصدر الصّوت ، فرأوا على قمّة تلٍّ من التلال القريبة منهم ، رجلاً يرتدي الملابس السود المخطّطة بالفضّة ، وعلى رأسه قُبَّعَة عريضة تخفقُ فوقها ريشةٌ حمراءُ طويلة ، فأمعنوا النّظر فيه فإذا هو الرُّبّان « بلود » .

فوثب « لوفسُّور » واقفاً ، وقد عقدت الدهشة لسانَه ، فانحدر « بلود » إليه ، وانحدر معه عشرةٌ من الرِّجال الأشدّاء ، فلما اقترب من الآنسة « أوجيرون » حيّاها برفع قُبَّعَته ، فنظرت إليه مستغربةً مشدوهة ، فتابَع هو سَيْرَه إلى حيثُ كان « لوفسُّور » فقال له :

ــ « صباحَ الخير أيها الرُّبّان ! . . . إن العاصفة قد اضطرّتنا أن نعود أدراجنا إلى ميناء الجزيرة ، فسفينتاى واقفتان على نحو ميلين أو ثلاثة من هنا . . . ولقد جئنا إليك مَشْياً على الأقدام ، لنقدّم لك التحية الخالصة . ولكن منْ هذان الأسيران ؟ هل رمَتْهُما العاصفة إلى الشاطئ ؟ »

فقال « لوفسُّور » وقد بدأ يغتاظ من تلك السّخرية والاستهزاء :

ــ « كلاَّ لم تَرْمِهما العاصفة ، وإنما كانا على السَّفينة الهولندية . »

ــ « ولكن لا أذكر أنك حدّثْتَنِي عنهما . »

ــ « لم أحدّثك عنهما لأن أمرهما يعنيني أنا ، فهما فرنسيّان مثلي . »

ــ « فرنسيّان ؟ ! أأصبحت تضربُ الجِزْيَة على مواطنيك؟ ولكن منْ هما أسيراك ؟ » فبادر الفتى فقال :

ــ « اسمي يا سيدى "هنرى أوجيرون" وهذه شقيقتى .» فقال « بلود »:

ــ « أتكونان من أسرة صديقى الحميم السيد "أوجيرون" حاكم جزيرة السُّلحفاة ؟ » فقال الفتى :

ــ « إنه والدى يا سيِّدى » فصاح « بلود » فى « لوفسُّور » :

ــ « أجُنِنْتَ أيها الرجل ؟ هاجمتَ سفينة هولندية واستوليت عليها. ثم أسرت ابن حاكم جزيرة السُّلحفاة وابنته ، وأنت لا تجهل أن هذه الجزيرة هى ملجؤنا الوحيد ؟ » فقال « لوفسُّور » :

ــ « قلت لك إنها مسألة تَعنْيِنى أنا وَحدْى . »

ــ « والجزية التى تطلبها أتَعنْيك أنت وَحدْك ؟ »

ــ « أجل . »

ــ « ما أنا مَنْ يوافقك على هذا ، فالاتِّفاق معقود بيننا على أن نتقاسم الغنائم ، ولكنَّ الأخطر من هذا كلِّه أنك أخفيتَ عنى هذه الغنيمة ، وما إخالُك نسيت العقوبةَ المقررة على مثل هذا التصرُّف . »

فضحك « لوفسُّور » ضحكةً كلها لُؤمٌ ونفاق وقال :

ــ « إذا كان سُلوكى لا يعجبك فما علينا إلا أن ننفصل . »

ــ « وهذا ما أنْوِيه ، ولكن يجب أن نسوِّى الحساب بيننا قبل أن ننفصل ، فقد فرضت جزية قدرُها عشرون ألف قطعة من الذَّهب ، لإطلاق سراح الفتى والفتاة ، فمن حقِّى أنا نصْفُ هذا المبلغ ، فادفعه لى



إن شئتَ أن تحتفظ بالفتاة . » فقال « لوفسُّور » متضايقاً :

— « ومن أين آتيك بهذا المبلغ الجسيم ، بل من يستطيع أن يدفعه ؟ »

— « يدفعه كلُّ من أراد أن يحتفظ بالفتاة رهينةً على مثل ذلك المبلغ . . . وقد أكون ذلك الرجل . »

وأخرج « بلود » من جيبه كيساً صغيراً مملوءاً باللآلئ الكبيرة ، فنادى معاون « لوفسُّور » وأراه إيَّاها ، وطلب منه وهو الخبير باللآلئ والجواهر أن يقدِّر لها ثمناً ، فقدَّر ثمنها بمبلغ يزيدُ عن المبلغ المطلوب فقال «بلود» :

— « إنَّ نصف عدد هذه اللآلئ من نصيب بحّارة "الصاعقة" فها هى ذى ، أما الباقى فمن نصيب بحارة "أرابلا" وسأعرف كيف أوزعها بينهم . »

ثمَّ التفت إلى أحد رجاله وقال :

— « تستطيع أن تقود الأسيرين إلى السفينة "أرابلا" . »

فاستولت على « لوفسور » سَوْرةٌ من الغضَب والحنق ، فاقترب من « بلود » وكفُّه على مقبض سيفه وصاح فيه :

— « لن تأخذهما وأنا حيٌّ أرْزَق . » فقال « بلود » :

— « سوف يمضيان إلى السفينة إذن بعد أن تموت . . . إنَّ إخفاء الغنائم أمرٌ عقابه الشَّنْق ، ولكن إذا كنت تُؤْثِر أن تموت والسيف فى يدك فأنا رَهْنُ إشارتك . »

وفسَحَ الرجال فى المجال للرَّجُلين ، فتصاولا فى مبارزةٍ عنيفة خرَّ « لوفسُّور » على أثرها جثةً هامدة .

والتفت « بلود » إلى معاون « لوفسُّور » وقال له :

— « إنَّ موت سيّدك يُلْغي العقد القائم بيننا ، فيمكنك أنت وبقية رجالك أن تأتوا معى إلى السفينة " أرابلا " لأقاسمكم الغنائم التى كسبناها من السفينة " سنتياجو " ، فإن شئتم أن تعملوا معى فأشترط أولاً إرجاع السفينة الهولندية إلى أصحابها . » فَتَقَبَّل رجال « لوفسُّور » العرض ، وما فكّر واحدٌ منهم فى الثأر لسيدهم لأنهم كانوا يخافونه ولا يُحبُّونه .

ومضى « بلود » إلى الغرفة التى أوى إليها الفتى « أوجيرون » وشقيقته فى السفينة « أرابلا » فانحنى مسلّماً وقال :

— « أرجو منك يا آنسة أن لا تخافى ولا تجزعى ، وأن تنْسىْ أنّى اشتريتك بمال ، فما حملنى على هذا إلا صداقتى لوالدك ، ويسعدنى أن أعيدَكِ وأخاكِ إلى جزيرة السُّلحفاة فى أقرب فرصة . » فقال الفتى « أوجيرون » :

— « أتقول الحق يا سيدى ؟ ! » فقال « بلود » :

— « لا عليك يا فتى ، إنك لتَعُدُّنى قُرْصاناً من القراصنة ، وإنى لكذلك وإن كنتُ أختلف عن " لوفسُّور " وأخلاقه . »

وانحنى مسلّماً يريدُ الانصراف ، فتقدَّمت الفتاة منه وقالت :

— « عُذْراً يا سيدى إن شككنا فى نُبْلِ عواطفك . »

— « لا حرج عليكما ، فمن حقّكما أن يخالجكما الشّك والارتياب . »

وزفر « بلود » زفرةً طويلة ، فقد تمنى فى قرارة نفسه أن تعلم يوماً « أرابلا » أنّه تصرّف تصرُّف الشُّرفاء حبّاً لها ، وتقديساً لتذكارها .



٨

فى شهر أغسطس من سنة ١٦٨٧ سار الأسطول الصغير بقيادة الرُّبَّان « بلود » إلى شواطئ « فنزويلا »، وكان « بلود » بمعاونة صديقه حاكم جزيرة السُّلحفاة قد أضافَ إلى رجاله خمسمائة بحار، ولو شاء المزيد لاستطاع ، ولكنه اكتفى بذلك العدد ، وجرى به إلى بحيرة « مارا كايبو» فاحتلّ المدينة التى تسمى باسم البحيرة، وكان انتصاره سهلاً يسيراً فلم يفطن إلى الفَخّ الذى نُصِب له.

نزل « بلود » إلى المدينة على رأس رجاله، وجال وإياهم فى أنحائها ، فألْفَى المدينة تكادُ تكون خالية من السُّكّان، فقد كانوا هجروها وحملوا

معهم كنوزهم وثرواتهم. ولمحَ السفن الإسبانية متجمعة عندمدخل البحيرة تحمي ظهرها قلعة كبيرة . وكان «بلود»عندما دخل البحيرة قد ظن أن القلعة خالية من المدافع والرجال ، ولكن لو شاء الآن أن يخرج من البحيرة ، لأصلته القلعة فضلاً عن السفن الإسبانية ناراً حامية ، ولاسيما أن قائد الأسطول الإسبانى إنما هو عدوه اللدود دون « ميجل » أمير الأساطيل ، ومعه ابن شقيقه الفتى دون « إسطبان ».

جالت هذه المعانى كذلك فى رؤوس البحارة ، وأدركوا أنهم وقعوا فى فخ لن يخرجوا منه وهم أحياء ، فهمهموا ساخطين متذمرين ، وكادت الفتنة تلعبُ برؤوسهم فيثورون على قائدهم الربان « بلود » .

وبرز « بلود » بينهم فى الوقت الذى وصل فيه التذمر إلى أقصاه ، فبكلمة بسيطة هادئة ، أخمد نار تلك الفتنة التى كان يذكيها معاون « لوفسور » القتيل ، وأفهم رجاله جميعاً أنه لولا رعونة ذلك المعاون الذى تلكأ فى البحار وأخرهم ثلاثة أيام ، لكانوا سبقوا الأسطول الإسبانى وأصبحوا سادة الموقف . فصاح فيه أحد الرجال :

— « ما علينا إذن إلا أن نقبل شروط الأميرال الإسبانى فقد وعدنا أن نخرج من البحيرة سالمين إذا أطلقنا سراحَ الأسرى ، وأعدنا الغنائم ولم نحرق المدينة . » فتبسم « بلود » ولم يشأ أن يقول لهؤلاء الرجال إنه لا يثق بالأميرال الإسبانى ولا بوعوده . وبعد أن سكت قليلاً قال :

ـ « لقد أرسلتُ إلى الأميرال أنْذِرُه وأقول له: إذا انقضت أربع وعشرون ساعة ولم يخرج الأسطول الإسبانى إلى عَرْض البحر، بعد أن يدفع لنا خمسين ألف قطعة من الذهب، فإننا سنحرق المدينة ونغرق سفنه. »

كان لهذا الكلام الذى لا يقوله إلا رجلٌ شجاع جَسُور، أثرُ السِّحر فى نفوس البحارة، فهتفوا لرُبَّانهم مصفِّقين مهللين.

ومرّت المهلة المحدَّدة، فلم يحرِّك الأميرال الإسبانى ساكناً، ففهم « بلود » أنْ لا مناصَ من القتال.

وقضى « بلود » ورجاله ثلاثة أيام فى الاستعداد للقتال، فمن إعدادِ المُؤَن، إلى تنظيف السلاح، إلى مَسْحِ المدافع، إلى غير ذلك من تهيئة مُعدَّات القتال.

وفى منتصفِ الليلة الرابعة، سار أسطول « بلود » بسفنه الأربع تحت جنح الظلام، يحاول أن يباغتَ الأسطول الإسبانى، ويرميه بالنار، ثم يفرّ هارباً من مدخل البحيرة الذى يشبه عُنق الزُّجاجة.

وسارت السُّفُن تَمْخُر عُبابَ الماء حتى أصبحت على مَرْمى القذائف من السفن الإسبانية، وكان البحّارة الإسبانيون من أميرهم إلى أصغر عامل فيهم، يغطُّون فى النوم إلا عدداً من الحرَّاس كانوا متفرِّقين على ظهر كل سفينة للمراقبة والحراسة.

ولم يقف الإسبانيون هذا الموقف من أعدائهم إلا اعتداداً بأنفسهم، واحتقاراً لشأن هؤلاء القراصنة، واعتماداً على ما لديهم من عتادٍ ومدافع

بلَه مدافع القلعة التي تحميهم .

فاجأ « بلود » سفن أعدائه ، ورماها بقذائف اللهب والجمر ، وصبّ على الأخص نيرانه على سفينة الأميرال الإسباني ، فمات من الحرّاس من مات ، وهبّ النيّام مذعورين ، فخفّ كلٌّ إلى سلاحه وموضعه من القتال ، واستطاع الأميرال ورجاله أن يغادروا سفينتهم المحترقة ، ويلتجئوا إلى أقرب سفينة منهم ويتحصّنوا بها .

ثم اشتركت مدافع القلعة في القتال ، وأخذت ترمي المهاجمين بقذائف النّار والحديد ، فأصاب عددٌ منها مقدّمة السفينة «أرابلا» وكادت النيران تأتي على جميع السفن المهاجمة ، لو أنها بقيت في أمكنتها أو أصرّت على المرور من عُنُق الزجاجة .

ولكن الرُّبان « بلود » أدرك أن محاولتَه مخفقة كلّ الإخفاق ، وأن الخروج من مدخل البحيرة تحت ذلك السَّيْل من النار ، إنما هو ضربٌ من المحال والجنون ، فاضطُرّ أن يكفّ عن الهجوم ، ويعود بالسليم من سُفُنه والمعطوب إلى ميناء المدينة . وكان الفجر قد بدأ يلوح في الأفق ، ويرسل نورَه الورديّ إلى مياه البحيرة وما يحفّ بجوانبها من تِلال وغابات ، فما حَفَلَ أحد من المندحرين ولا المنصورين بذلك الجمال والبَهاء .

وعُني « بلود » منذ عودته إلى الميناء بإصلاح العَطب الذي لحق بسفنه ، ومهما يكن من أمر تلك المحاولة الجريئة التي قام بها ، وإخفاقه

فى الخروج من فم البحيرة ، فالخسائر التى ألحقها بسفن العدوّ كفيلةٌ بأن ترجّح كفّتَه فى تلك المعركة البحرية ، وتعدّه هو الفائز المنتصر .

وفى تأثير ذلك الرأى وإيماناً به ، أخذ « بلود » حالما عاد إلى المدينة واستقرّ فى مكتبه من قصر المحافظ ، يكتب رسالةً إلى دون « ميجل » هذا نصُّها :

« أعتقد أنى أوضحت لكم يا صاحب السعادة فى هذا الصباح ، بأنى كنت سيّد الموقف فى معركة كنتم فيها أكثر سُفُناً منى وأوفرَ رجالاً ومدافع . وبعد الخسارة التى ألحقتها بكم سيتعذّر عليكم أن تنفّذوا وعيدكم أو تضطرُّونا إلى القبول بشروطكم .

على أننى قبلَ أن أنزل بكم الضّرْبة القاصمة ، أود أن أمكّنكم للمرة الأخيرة من شروط التّسليم ، فإنى أقبَلُ أن أبْقِى على مدينة "ماراكايبو" فلا أمسّها بسوء ، وأن أطْلق سراح الأسرى الذين أسرتُهم فيها ، على أن تدفعوا لى خمسين ألف قطعة من الذهب ، ومئة رأس من الأغنام ، وتفتحوا لى طريق الخروج من البحيرة إلى عرض البحر . وسأحتفظ بأعيان المدينة رهائن لدىّ ، حتى أخرج من البحيرة ثم أعيدهم إليكم .

فإذا رفضتم هذه الشُّروط يا صاحب السعادة فإنى سوف أحطّم سفنكم وقلعتكم التى تظنُّونها أمنع من عُقاب الجو ، وأهدم مدينة "ماراكايبو" ولا أترك فيها حَجَراً فوق حَجَر . »

واختار « بلود » محافظ المدينة رسولاً يحملُ هذه الرسالة إلى الأميرال

« دون ميجل » فقد كان هذا المحافظ مُشفِقاً على مدينته من الخراب والدَّمار ، ولكنه عاد من لدُن الأميرال يجرِّرُ أذيالَ الخيبة ، فقد رفض « دون ميجل » الإنذار ، وتوعد بمهاجمة سفن « بلود » وتدميرها فى الساعة التى يتلقَّى فيها المَدَد من بقيَّة وحدات الأسطول الإسبانى .

وشاع أمر تلك الرِّسالة والجواب عنها بين البحارة ، فعاد التذمُّر يحتلُّ نفوسهم وصفوفهم ، وعاد « كاهو زاك » معاون « لوفسُّور » فيما مضى يثيرُ الفتنة بينهم ويحملهم على التمرُّد والعِصْيان .

وانتهى الأمر بهذا الذى يُدْعى « كاهو زاك » إلى أن يراسل « دون ميجل » سرًّا ، ويلتمس منه السماح له ولنَفَر من الرجال بالخروج من البحيرة ، فرضى « دون ميجل » بذلك . واجتمع « كاهو زاك » ونحو من ستين بحَّاراً آثروا الذَّهاب معه ، فاستقلُّوا السفينة « الصاعقة » ، ونهبوا ما استطاعوا نهبه من ذهب ومال ، وقبل أن يرفع المرساة جاء إلى « بلود » وقال له :

ــ أستودعك الله وأتمنَّى لك النَّجاة من هذا المأزق الذى رميت به نفسك . » فقال له « بلود » :

ــ « مع السلامة . . . ولستُ أمنعك حتى من الانضمام إلى قوَّات "دون ميجل" . فقال « كاهو زاك » بوقاحة :

ــ « سوف أقرِّر أنا وزملائى ماذا يجب أن نفعل وإلى مَنْ ننضمّ . »

وبعد بضع ساعات من الزمان كان « كاهوزاك » ورجاله تسير بهم

السفينة فى عرض المحيط . وجلس «بلود» ونفرٌ من رجاله القدماء الأوفياء ، وعلى رأسهم « پت» يتداولون فى الأمر ، ويقدحون زناد فكرهم فى العثور على وسيلة تمكّنهم من مغادرة تلك البحيرة .

وبينما هم على هذه الحال ، إذ جاء محافظُ المدينة يلتمس لقاء الرُّبان « بلود » ، فلما مَثَل بين يديه استحلفه ألاّ يحرق المدينة ، ووعده أن يأتيه فى خلال ثلاثة أيام بالجزية التى يطلبها من الذهب والأنعام . فسأله « بلود » :

— « وكيف تستطيع الحصول على الجزية وقد فرّ كلُّ رجال المدينة.»

— « هذا سرّى يا سيدى ، واعذرنى إن أنا لم أبُحْ به .»

— « ألا تعرف أن لدىّ وسائل تحملك على الكلام .»

— « أعرف ذلك ولكننى أعتمد على شرف الرُّبان "بلود". »

— « أتعتمد على شرف قُرصان ؟! »

— « كلاّ وإنما أعتمد على شرف الرُّبان "بلود". »

وفى نهاية اليوم الثالث جاء المحافظ إلى « بلود » بالجزية المطلوبة ، فوُضِع الذهب والأنعام فى المكان المُعَدّ لكلٍّ منهما ، وذُبحت بعض رؤوس من الغنم وطُبخت ، فأكل البحارة منها واستسلموا إلى وليمة شهيّة .

وبعد أيام قلائل جاءت الجواسيس من سكان الجزيرة تقول للرُّبان « بلود » إن الإسبانيين قد نزعوا المدافع من السفينة المعطوبة ، ونقلوها إلى القلعة ليزيدوها تحصيناً ، فشاء « بلود » أن يتحقق هو نفسه من شأن



تلك القلعة ومقدار تحصينها ، فانتظر حتى هبط الظلام ، ثم استقل وحده قارباً من القوارب وسار به إلى أحد الشواطئ البعيدة من الجزيرة ، ومن هناك توغل فى الغابات وصعّد فى التلال فوصل إلى مقربة من القلعة ، فتوارى وراء إحدى القمم بحيث يرى ما يجرى بداخل القلعة ولا يُرى . وفى ضوء الفجر المنبثق ، وقف على ما يهمه الوقوفُ عليه من أمر تلك القلعة ، ثم تسلل عائداً إلى قاربه فى الطرف البعيد من الجزيرة ، ورجع به إلى المدينة .

ولما اجتمع بأركان حربه ، قص عليهم ما شهد ورأى ، وأخبرهم أنه قرر أن يستولى على القلعة ، وأن يهاجمها من طريق البر ، فناقشه صديقه « بِت » فى تلك الخُطّة الجريئة ، وعدّها ضرباً من العبث والمُحال ولو أنه لم يتعوّد أن يخالفه أو يناقشه فى رأىٍ من الآراء أو فى خُطّة من الخُطط .

وعلى حين فجأة وثب الرُّبان « بلود » من مكانه ، ولمعت عيناه بنورٍ غريب ، وانبسطت أسارير وجهه ، وصاح فى رفاقه :

— « لقد وجدتُها ... لقد وجدتُ الخُطّة التى تمكّننا من الخروج إلى البحر ، وأنوفُ أعدائنا مُرْغمة . . . »

فاشرأبّت إليه الأعناق ، وشخَصت الأبصار ، وكتم الرجال أنفاسهم حتى لا يفوتهم شىءٌ من دقائق تلك الخُطة بعد إذ شرحها لهم فوافقوا عليها بإجماع الآراء . وقضى القومُ طولَ ذلك اليوم فى الاستعداد للرحيل ، وفى

صباح اليوم التالى سارت السفن الثلاث فى طريقها إلى مدخل البحيرة .

ورأى « دون ميجل» تلك السفن مقبلةً إليه، فَفَرك هو وابن أخيه أيديهم فرحاً واغتباطاً ، وعلل النفْس بقُربِ ساعة الانتقام ، فأصدر « دون ميجل » أوامره إلى جنود القلعة بأن يكُونوا على أهبةٍ واستعداد .

ولشدّ ما دهش «دون ميجل» ودهش معه رجالُه لما رأوا أن السفن الثلاث لم تتابع سيرها إلى مدخل البحيرة، بل عرّجت غرباً إلى أحد الشواطئ التى لا تتناولها قذائفُ القلعة ، وهناك ألقت المراسى ، ثم أنزلت جميع القوارب إلى البحر ، فامتلأت بالجنود وسارت بهم إلى الشاطئ ، فنزلوا منها وتوغّلوا فى الغابات . وعادت القواربُ إلى السفن ، ثم رجعت إلى الشاطئ محمّلةً بالرجال والعتاد ، وكرّرت ذلك بضعَ عشرةَ مرّة حتى وثق « ميجل » كلّ الوثوق أن الربّان « بلود » قد عزم أن يهاجمه من البر ليستولى على القلعة ، فصاح فيمن حوله :

— « إنّ هذا الأحمق قد قرر مهاجمتنا من البرّ... مَنْ قال إن بحّارته لا يزيد عددهم عن خمسمائة بحار ؟ لقد نزل منهم إلى الشاطئ أكثر من ألف ، ولا تزال القوارب تروح وتغدو بين السفن والشواطئ . . . هيّا جميعاً إلى القلعة . . . »

ونزل رجالُ الأسطول الإسبانى ، إلى البرّ يتقدّمهم « دون ميجل » و« دون إسطبان »، وسارعوا إلى القلعة، وأقرّ الأميرال أن تحوّل فُوّهات

المدافع وتوجه إلى البرّ ، فانكبَّ الجنود على ذلك العمل ، وقضوا فيه وقتاً غير قصير ، فلما أتمّوه تبسم « دون ميجل » وقال :

ـــ « سنحصدهم الآن حَصْداً . . . لقد أوغلوا فى الغابات على أمل أن يفاجئونا ، ولكنهم لا يعرفون أننا لهم بالمرصاد . »

وفاتَ « دون ميجل » ورجاله أن يعلموا جليّة الأمر ، فالقوارب عندما كانت تعودُ إلى السفن ، كانت تعودُ بالرجال منبطحين إلى بطونهم ، حتى إذا وصلت إلى السفن استدارت إلى الجهة التى لا تُشْرف عليها القلعة ، فصعدَ منها الرجال دون أن يلمحهم أحدٌ من رجال العدوّ .

وهكذا انطلت الحيلةُ على « دون ميجل » فحوّل اتجاه فُوّهات المدافع ظنّاً منه أن الرُّبان « بلود» سيهاجمه من البرّ ، فحدّثوا عن دهشته ولا حرج ، لما رأى السفن الثلاث قد رفعت مراسيها ، وجرت إلى مدخل البحيرة ، وخرجت منه سالمة ، بعد أن صبّت القذائف على سفنه فأغرقتها.

وصحا الإسبانيون قليلاً من أثر المباغتة والدّهشة ، فهبّوا يُعيدون فُوّهات مدافعهم إلى اتجاهها الأول ، ويُطلقون القذائف على السُّفن الهاربة ، ولكن تلك السفن كانت أبْعَد من أن تُدركها القذائف .

وفى عرض البحر لقى أسطول « بلود » سفينة إسبانية كانت مُجِدّة فى السَّيْر إلى بحيرة «ماراكايبو » ، فاستوقفها وجرّدها من كنوزها ، واسترجع منها الأسْرَى ، وكان فى مقدمتهم « كاهوزاك » والرّجال الذين هربوا معه ...



٩

كانت موقعة « ماراكايبو » عملاً باهراً من أعمال الرُّبان « بلود » فطارت له سُمْعةٌ عظيمة، أخذت تنتقل من بحرٍ إلى بحرٍ ، ومن جزيرةٍ إلى جزيرة ، حتى وصلت إلى جميع أنحاء أوربا .

وترتّب على تلك الموقعة مراسلاتٌ دبلوماسيّة بين بَلاط « لندن » وبَلاط « مدريد » فتنصَّلت « لندن » من الرُّبان « بلود » ومن أعماله ، ولم تعد نفسها مسئولة عن عمل قُرْصان من القراصنة .

أما « دون ميجل» فقد عنّفه المجلس الأعلى للأسطول تعنيفاً شديداً، فأخذ يجدّ فى البحث عن الرُّبان « بلود » ليظفر به حيًّا أو ميتاً، فيرضى عنه المجلس الأعلى ويشمله ملك الإسبان بعفوه .

١

وانقضت سنةٌ على هذه الحوادث ، حتى كان اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٦٨٨ ، وكانت ثلاث سفن فى ذلك اليوم يحتويها بحر « الأنتيل » : كانت الأولى السفينة « أرابلا » متجهة إلى جزيرة السُّلحفاة بعد أن أبعدتها العواصفُ والزَّوابع عن شقيقاتها .

وكانت الثانية سفينةً إسبانيَّة معقودة اللِّواء للأميرال «دون ميجل» وكانت إلى الجنوب الغربى من شبه جزيرة « إسپنيولا » .

وكانت الثالثة سفينة إنجليزية راسية فى ميناء فرنسى يسمَّى« القديس نقولا » ويقع فى الشَّمال الغربى من شبه جزيرة « إسپنيولا » . وكانت هذه السفينة فى طريقها إلى « الجامابيك » وفوق ظهرها اللورد « جوليان ويد » ابن عمة رئيس الوزراء قد أرسله فى مهمة دقيقة خطيرة .

وكان حاكم « الجامابيك » فى تلك الآونة الكولونل « بيشوب» اختارته الحكومة الإنجليزية لذلك المنْصِب لما تعرفه عنه من قسوةٍ وصرامة ، فقبل هو ذلك المنصب على أملٍ أن يلقى فى يومٍ من الأيام الرُّبان « بلود » ويذيقه شرّ أنواع العذاب .

اشتدت وطأة الكولونل « بيشوب » على القراصنة ، ولكن بقى الرّبان « بلود » حرًّا طليقاً ، يجوبُ البحار ، ويُغْرِق السفن الإسبانية ،ويستولى على كنوزها ، ويثير الاحتجاج تلْوَ الاحتجاج بين إسبانيا وإنجلترا .

ولما ضاقت بالكولونل « بيشوب» الحيَل ، وتوالى عليه كلامُ حكومته

القارص ، قرّر أن يستخدم ما تحت إمْرَته من سُفن الأسطول الإنجليزى، ويهاجم القرصان « بلود » ورجاله فى عُقْرِ ملجئهم الأمين وهو جزيرة السُّلحفاة . فلما أحيط رئيس وزراء إنجلترا علماً بخطّة الكولونل « بيشوب » أرسل إليه اللورد « ويد » وفوّضه أن يبتّ فى الأمر حسبما يرى ويقرّر ، وأن يجتهد فى ضم الرُّبّان « بلود » إلى أسطول التّاج .

وعرّجت سفينة اللورد وكان اسمها « رويال مارى » على ميناء « القديس نقولا » فى طريقها إلى « الجامايك » .

واتّفق أنْ كانت ابنة شقيق الكولونل قد جاءت منذ أيّام إلى ذلك الميناء لتزور بعض الأهل ، فطلبت إلى الرُّبّان أن يسمح لها بالسفر على تلك السفينة إلى « الجامايك » فأجيبت إلى طلبها على الفَوْر .

وسُرّ الفتى النبيل الأنيق اللورد « ويد » أن يجد فى الآنسة « أرابلا » ابنة شقيق الكولونل « بيشوب » رفيقةً جميلة ذكية ؛ فأخذ يبادلها الحديث، ويستعلم منها عمّا يريد معرفته من شئون جُزُر « الأنتيل » ويُنهى إليها ما تجهل من شئون العاصمة وشئون نساء البلاط .

وجرّها الكلام يوماً إلى التحدُّث عن الرُّبّان «بلود» فسألها قائلاً :

— « هل عرفت يا آنسة هذا الذى يدعى "بلود" وقد كان إلى عهد قريب عَبداً من عبيد عمّك ؟ »

فصمتت « أرابلا » قليلا ، ثم انحنت إلى الحاجز وقالت بصوت خافت :

— « نعم عرفته ورأيته غيرَ مرّة . . . »

— « وما رأيُك فيه ؟ »

— « إنه بائس تاعس . »

— « هل تعرفين قصّته ؟ »

— « لقد كان رَواها لى فحزنتُ له .. . ثم لما انتهى إلىّ ما يقوم به من أعمال القـَرصنة ، جزمتُ بأنه لم يصدقنى الخبر فيما رواه لى . »

— « صحيحٌ أنه لم يحارب فى صفوف الثُّوّار ، وأنه أُخِذَ بشبهة ضعيفة ، وكيفما كان الأمرُ ، فقد استعاض عمّا لحِقَ به من ظُلْم ، بثروةٍ ضخمةٍ نقل جانباً كبيراً منها إلى فرنسا ، بمعاونة المسيو " أوجيرون" أبى خطيبته . »

سكتت « أرابلا » حزينةً مفكرة ثم قالت :

— « لو صحّ ما تقول يا سيّدى اللورد لكان هجَر القـَرْصنة... فلو أنّه يحبُّ امرأةً من النساء ، وكان على ما تقول من الغِنى والثراء ، لما عاش فى وسط الأخطار والمغامرات . »

— « أنتِ على صوابٍ يا آنسة ، ويدهشنى أنه حتى اليوم لم يتزوّج ابنة المسيو " أوجيرون" مع أنه قَتـَلَ رجلاً بسببها ! » فصاحت « أرابلا » مستنكرة :

— « أقـَتـَلَ رجلاً بسببها ؟! »

— « نعم ... قَتلَ رجلاً فرنسيًّا يُدعى "لوفسور" لأنه كان يزاحمه على حبّ الفتاة . . . ولكن قيل لى إنّه قتله فى مبارزةٍ شريفة ... »

وازداد اضطراب «أرابلا» ، وامتُقع لونُ وجهها فغيّرت مجْرى الحديث.

وفى اليوم الثّانى ، قابلت سفينةٌ إسبانيّة سفينةَ اللورد ، فأمطرتها بالقذائف دون ما إنذارٍ ، وبدأت السفينة «رويال مارى» تَغرَقُ وتغوصُ رويداً رويداً فى غمرات الماء . وبعد دقائق قليلة ، حضر إلى سفينة اللورد ربّان السفينة الإسبانية ، يتقدّمه «دون ميجل» ، فهمّ اللورد «ويد» أن يجرّد حسامه ، فتبسم «دون ميجل» وقال :

— «يستحسن يا سيدى أن تسلّم سيفك ، وتصحبنى أنت والآنسة إلى سفينتى ، فسفينتكم تغرقُ وستستقرُّ بعد دقائق معدودات فى أعماق البحر .»

فاضطُرَّ اللورد أن يُذْعِن لكلام «دون ميجل» ، وكان هَدَفُ هذا أن يظفر من هاتين الرهينتين بجزيةٍ ضَخْمة .

أما بقيّةُ البحارة فقد خُيِّرُوا بين الأسر فى السّفينة الإسبانيّة وبين نزول القوارب ، واستسلامهم إلى مصيرهم المجهول ، فآثر كلٌّ ما أراد .

وعندما تمّ التعارفُ بين الآسر والأسيرين ، دهش اللورد «ويد» فقال ممتعضاً :

— «أتزعمُ يا سيّدى أنك أمير الأساطيل الإسبانية ، وتتصرّف تصرُّفَ القُرْصان؟ ! إنك سوف تدفع غالياً ثمن هذه الدّماء التى أرقتها ، ولا إخالُك تجدُ عُذْراً من الأعذار عندما يناقشك ملك إسبانيا الحساب .»

فقال «دون ميجل» وهو يبتسم ابتسامةً صفراء :

— « ألا ترى أنني صريحٌ في قولي وعملي ؟ أفعلُ ما أفعلُ ثم أعلمك مَنْ أنا دون مواربة ولا رياء ؟! فنحن معشرَ الإسبانيين قومٌ صُرحاء، نضربُ ضَرْبتنا ولا نتوارى مثلكم معشرَ الإنجليز وراءَ "بلود" أو "مورجان" أو من لفَّ لفَّهما من القراصنة . »

— « إن " بلود" يا سيدى ليس من رجال البحرية الإنجليزية . »

— « لستُ أدرى . . . فالمهم لُدىّ الآن، مبلغُ الفِدْية التى سأفرضها عليك وعلى الآنسة " بيشوب" ، فعمُّها الكولونل من أغنى الأغنياء ، ولعلك تماثله ثروةً وغنًى . »

ثم حيّا « دون ميجل » أسيريه وانصرف، فقال اللورد « ويد » للآنسة « أرابلا » :

— « لقد جئت إلى جزر " الأنتيل " لأحاول أن أقضى على القرصنة، فرأيت أنّ الفرنسيّين على حق فى تغاضيهم عن أعمال القراصنة وتشجيعهم على قتال هؤلاء الإسبانيين السُّفَهاء . » فقالت الآنسة «أرابلا» مبتسمة :

— « لا تَخْشَ بأساً يا سيدى اللورد ، فالمال هو طلبَةُ الرّجل وفقدانه أهون الشئون . أما هؤلاء البحّارة الذين ذهبوا ضحية الغدر والقرصنة ، فليرحمهم الله ، ويشمل الأحياء منهم بعطفه ورعايته . »

وأمْعَنَ « دون ميجل » فى إكرام أسيريه، وخصّص بكلٍّ منهما غرفةً واسعةً جميلة الرِّياش ، وسمح لهما بالسَّير فى أنحاء السَّفينة، ورجا منهما أن يشاطروه الطعام فى الغرفة الكبرى .

وفى صباح اليوم التّالى، استيقظ اللورد « ويد » مبكّراً ، فخرج إلى سطح السّفينة يستنشق الهواء النقىّ الصّافى ، فوجد الآنسة « أرابلا» قد سبقته إلى ذلك السطح لتستنشق هى أيضاً الهواء النقىّ الصافى ، بعد الحوادث الأليمة التى شهدتها يوم أمس . وتبادل اللورد والفتاة التحيّة ، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث فى مختلف الشئون ، فلاحت لأعينهما فى الأفق أشرعةُ سفينةٍ قادمة إليهما ، ثم رأياها بعد نحو ساعة تكاد تقترب من سفينة « دون ميجل » كأنها تريد أن تشن عليها الغارة .

وحدّقت « أرابلا » فى هذه السّفينة المقبلة عليهم ، فعرفت فى أشرعتها البيض ، وهيكلها الأحمر ، أنّها السّفينة التى كانت تسمّى فيما مضى « سنكولاجاس » ولكنها لم تعرف أن اسمها قد تغير إلى « أرابلا » وأنها سفينة الرُّبّان « بلود ». والتفتت الآنسة « أرابلا» حولها فرأت « دون ميجل » مسروراً مغتبطاً ، فقد كان ينتظر أن تقترب منه تلك السفينة ليستولى عليها ويمثل بربانها أشنع تمثيل ، بعد أن بحث عنه طويلاً وهداه القدرُ إليه . . . كان يمنّى النّفس بأنه سينتقم بعد لحظاتٍ من عدوّه اللدود الربّان « بلود » .

وبدا « لدون ميجل » أن السفينة القادمة أصبحت فى متناول قذائفه ، فأمر بإطلاق النّار ، فانطلقت القذائف تسبقها ألسنة اللهب ، وانعقدت سحبُ الدُّخان الكثيف بين السفينتين ، وتابعت مدافع « دون ميجل »

إطلاق النّار، فما شكّت الآنسة «أرابلا» واللورد «ويد» أنّ الدّخان سينجلي عن سفينة محطّمة تبتلعها الأمواج .

ولقد أدهشهما وأدهش «دون ميجل» أيضاً أن السفينة لم تدافع عن نفسها فما انطلقت منها قذيفةٌ واحدة ، ولكن ما كاد هؤلاء الثلاثة يفكّرون مثل ذلك التفكير حتى دوّت في الفضاء أصواتُ القذائف ، وانصبّتْ على مقدّمة سفينة «دون ميجل» فأحدثت فيها الثّغرات وأمالتها ، فلن ينقضي وقت طويل حتى تستقر في قَعْر البحر .

وكانت الخُطّة التي اتبعتها تلك السفينةَ الجريئة ، أنها حين أصبحت على مرمى القذائف من سفينة «دون ميجل» غيّرت موقفها في الحال ، واتجهت غرباً تحت ستار الدُّخان ، وخطّت في سيرها دائرة كبيرة فوصلت إلى وراء سفينة «دون ميجل» فصبّتْ عليها نيرانها .

وما إن يخرج «دون ميجل» واللورد «ويد» والآنسة «أرابلا» من ملجئهم ، حتى يباغَتوا بالسّفينة الهاجمة تقترب من سفينتهم الغارقة فلمّا كادت تلتصق بها ، هجم منها الرجال يتقدمهم قائدهم ولم يكن إلا الرُّبّان «بلود» . اقترب «بلود» من «دون ميجل» وقال له :

— «ها إنّ الأقدار تجمعنا ثانية يا سيدي الأميرال !»

— «وماذا تريد مني أيُّها الرجل ؟!»

— «لا شيء يا سيّدي الأميرال سوى أن تركب القوارب أنت ومَنْ



الربان بلود

يشاء من رجالك ، وتنجوا بأنفسكم قبل أن تغرق سفينتكم . . . وإن شئت أن تستمع لنصحى فكفّ عن ملاحقتى ، وعُدْ إلى إسبانيا واشغل نفسك بأشياء أُخر غير قيادة السُّفُن . . . » فرماه « دون ميجل » بنظرات كلُّها حقد وضغينة ، واستدار على عَقِبَيْه ، ونزل من السفينة إلى بعض القوارب .

وهَمّ « بلود » بالعودة إلى سفينته فسمع صوتاً يقول له :

— « ما أظنُّك ستترك هذا المجرم يذهب آمناً مطمئنّاً ؟ ! »

فالتفت « بلود » إلى مصدر الصوت ، فرأى اللورد « ويد » وإلى جواره الآنسة « أرابلا » فوقف جامداً هنيهة ، كأنه يراهما لأول مرة ثمّ قال :

— « وما شأنك أنت يا سيدى ؟ ! ومن تكون ؟ »

— « أنا اللورد "جوليان ويد" » ثم قصّ اللورد على « بلود » قصة السّفينة « رويال مارى » فقال « بلود » :

— « إذن أسرك فى صحبة الآنسة "بيشوب"! » فصاح اللورد مدهوشاً :

— « أتعرف أنت الآنسة " بيشوب " » فخطا « بلود » خطوتين وانحنى أمام الآنسة ثمّ تابع كلامه يردّ على اللورد بصوت خافت :

— « كان لى شرف معرفتها فيما مضى ، ولكن يلوح لى أن الآنسة ضعيفة الذّاكرة ، فيخيّل إلىّ أنها لا تعرفنى ! ! » فقالت « أرابلا » :

— « أنا لا أعُدُّ القراصنة واللّصوص فى عداد أصدقائى يا ربّان " بلود " ! » فوثب اللورد « ويد » من مكانه وصاح :

- « الرُّبان " بلود " . . . أأنت الربان " بلود " ؟ ! »

فقال « بلود » بلهجة حزينة ساخرة :

- « ومَنْ أكون إذن سوى ذلك القُرصان اللّص ؟ ! وكيفما كان الأمر فتفضَّلْ يا سيدى غير مأمور وأوْصِل الآنسة "بيشوب" إلى سفينتى قبل أن تغرق هذه السّفينة أو نغرقها . » وتركهما وانصرف .

ولما انبثق الفجر فى اليوم التالى ، كان اللورد « ويد » والآنسة « أرابلا» يتمشّيان على سطح السفينة فقال اللورد :

- « لماذا تكرهين هذا الرجل يا آنسة بعد إذ أنقذنا من الموت؟ إنّى أراه رجلاً كاملَ الصِّفات يستحقُ كلَّ تجلّةٍ وتوقير . . . »

- « ولماذالا تحمل قريبك رئيس الوزراء على ضَمّه إلى البحرية الإنجليزية ؟ ! »

- « لقد فعلتُ هذا يا آنسة ، وإنى لأحمل أمر التعيين فى جيبى . »

ثمّ شرح لها المهمة التى أوفد من أجلها إلى جزر « الأنتيل » وهى أن يسعى فى لقاء الرُّبّان «بلود» وحَمْلِه على هجر القرصنة ، والانضمام إلى البحريّة الإنجليزيّة ، بعد أن يَعِدَه بالعفو عنه وعن رجاله .

ومَرّ الرُّبّان « بلود » فى هذه اللحظة بضيفيه ، فهرع إليه اللورد ، وطلب منه أن يكون صديقه ، وذكر له المهمة التى جاء من أجلها إلى جزر « الأنتيل » فقال « بلود » على مسمع من الآنسة « أرابلا » :

— « وعلامَ تريد يا سيّدى أن تكون صديقاً لقرصان لص ؟ أتظنّ أنّنى أقبلُ أن أنخرط فى خدمة الملك جاك ، بعد الذى لقيته فى عهده من ظلم وغدر ؟ مَنْ جعلنى قرصاناً ؟ مَنْ حكم علىّ بالعبودية ، من أجل ثائرٍ جريح ، أسعفته دون أن يكون لى فى الثورة أثرٌ ولا شأن ؟ عذراً يا سيّدى اللورد إذا كان هذا القرصان اللصّ يرفض طلبك وطلب مَنْ أوفدك إليه ! » وانصرف « بلود » وقد كادت سَوْرة الغضب تفعلُ فى نفسه فعلها ، فنظر اللورد إلى الآنسة « أرابلا » وقال :

— « يخيّلُ إلىّ يا آنسة أن كلماتك قد آلمته وجرحت عزته وكرامته ، ولست أدرى لماذا تكرهين هذا الرجل ، فى حين أنه يعرّض نفسه لأشدّ الأخطار فى سبيل سلامتنا . » فقالت الآنسة « أرابلا » :

— « وكيف ذلك ؟ »

— « إنه سائر بسفينته إلى "الجامايك" حيث يجتمع الأسطول الإنجليزى تحت إمرة عمّك . . . » فصاحت « أرابلا » :

— « إن عمله هذا هو الجنون بعينه ، ولعله لا يدرى . . . »

فقاطعها اللورد وقال :

— « إنه يدرى بكل شىء ، ولكنه كريم النّفس إلى أبعد حُدود الكرم . » فقالت « أرابلا » مغمغمة آسفة :

— « ولكنّه عاش هذه السنوات الثلاث عيشةَ القراصنة واللّصوص . . . »



١٠

كانت السفينة « أرابلا » فى صباح اليوم التّالى على مقربة من « الجامايك » فاستدعى «بلود » كلاًّ من الاورد والآنسة« أرابلا »وقال لهما :

ــ « لقد اقتربت كثيراً من الشاطئ رجاءَ أن تصلا إلى حيثُ تقصدان فى أمْن وسلامة ، فأرجو أن تستعدّا للنزول ، فإنى سوف أرفع راية التسليم قبل أن تقذفنا هذه السّفن الثلاث من أسطول "الجامايك" إلى أعماق البحار . »

ولم يكد « بلود » يتمّ كلامه ، حتى أخذت إحدى تلك السّفن تواصل إطلاق القذائف على السّفينة « أرابلا » .

وأمرَ « بلود » برفع راية التّسليم ، فأقبل عليه رجاله ومعاونوه ثائرين

محتجين ، مؤثرين أن يموتوا فى المعركة بدلاً من أن يسلموا أعناقهم لحبال المشانق ، واتهموه بأنه يغدر بهم فى سبيل امرأة هى الآنسة « أرابلا » ، فلا بد إذن من أخذها رهينة حتى تسلم أعناقهم .

وأفهم « بلود » أعوانه أنه هو الوحيد الذى سيسلم نفسه ، وأن الكولونل « بيشوب » وهو أعرف الناس به ، سيسمح للسفينة بالاستمرار فى سيرها بمن فيها إذا وثق بالقبض عليه .

ولم يستطع « بلود » إقناع أعوانه ورجاله ، فنشبت بينه وبينهم ثورة عنيفة ، فكظم « بلود » غيظه ، وحاول غير مرة أن يبطش بمن يقترب منه مهدداً متوعداً ، ولكنه كان يعود عن عزمه ومحاولته ، ولم يكن فى جانبه إلا صديقه الفتى « پت » .

ولمع فجأة فى خاطره بريق خاطف ، فنادى بالرجال والأعوان وقال :

— « ستنجون جميعاً . . . استمعوا إلى قليلاً . . . لقد كان ضيفنا اللورد " ويد " قد عرض على باسم رئيس الحكومة وباسم الملك أن ننضم إلى البحرية ، وننخرط فى خدمة الملك والدولة ، فرفضت بإباء وشمم . . . على أننى الآن أقبل ذلك العرض ، فمن شاء منكم أن يتبعنى فليتبعنى ، ومن شاء منكم أن يبقى حراً طليقاً فليفعل مشمولاً بالعفو . . . ذلك وعد اللورد ونحن نقبل به . »

وسر اللورد أن تنتهى مهمته على هذا النحو الجميل ، فأيد الربان

« بلود » فى كلامه ، وخَفَّ إلى مخدعه ليأتى ببراءات العفو ، ويسجل فيها أسماء المستسلمين ، فقد كان رئيس الوزراء زوّده بعددٍ منها ممهورة بتوقيع الملك ، وهدأت الثورة .

ودخلت السفينة ميناء « پور رويال » وجاء أحد الضباط موفداً من قبل الكولونل « بيشوب » ليستولى على السّفينة ومن فيها ، ففوجئ ببراءات العفو وبوجود اللورد « ويد » ، فعاد أدراجه خائباً خاسئاً ، وذهب يرفع الأمر إلى الكولونل . وقبل أن يغادر ذلك الضابط السفينة ، كلّفه « بلود » أن يصحب الآنسة « أرابلا » ويوصلها إلى عمها الكولونل . أما اللورد « ويد » فقد آثر أن يبقى فى السفينة .

ومضى على استسلام الرُّبّان « بلود » نحو أسبوعين ، والأقدار لاتفتأ تعاكسه وتضايقه ، فقد عزّ على الكولونل « بيشوب » أن ينتهى الأمر بهذه الخاتمة الحميدة ، وهو الذى كان يعلّل النّفس بالقبض على الرُّبّان « بلود » والتنكيل به ، فكان يتفنّن فى اختراع كل سبب ، واستنباط كلّ حيلة ، ليجرّد « بلود » من براءة العفو عنه ، غير أن اللورد « ويد » كان للكولونل بالمرصاد ففوّت عليه مقاصده . وبينا كان «بلود» فى صباح يوم من الأيام مستلقياً إلى فراشه على ظهر السفينة « أرابلا» ، إذ جاءه رسولٌ من قِبَل الكولونل يدعوه إلى مقابلته ، فلما علم « يت » بالأمر حاول أن يقنعه بألاّ يذهب ، فتبسم « بلود » ابتسامةً حزينة وقال :

— « لا مناصَ من الذهاب يا عزيزى "پت" أتريدنا أن نتمرّد ثانية ونشقّ عصا الطاعة ، فى حين أن سفينتنا أسيرة سجينة فى هذا الميناء ، ورجالنا جميعهم قد هجرونا إلاّ نفراً قليلاً بقى معنا ؟ . . . إنى ذاهب إلى لقاء هذا الكولونل الوحْش ، ولكن اطمئنّ بالاً فلن يفترسنى بالسهولة التى يحلم بها . وإنى أعدك بالعودة إلى السّفينة قبل الظهر .

وذهب « بلود » إلى لقاء الكولونل ، فاستأذن له فى الدّخول ، فدخل ولقى عنده اللورد « ويد » فنهض هذا واقفاً ، وحيا « بلود » تحيةً جميلة . أما الكولونل فبقى جالساً وراء مكتبه وقال :

— « لقد طال انتظارى إياك أيها الرجل . . . وعلى كلٍّ فقد استدعيتك لأتحقّق منك عن أشياء بلغتنى أمس وأدهشتنى . »

— « إنى مستعد أن أزوّدك يا سيدى بما عندى من أخبار ! »

— « لقد غادرت الميناءَ أمسِ سفينةٌ تحمل مئة قُرصان ممن كانوا تحت إمرتك ، فلماذا صرّحتَ لهم بالسفر ؟ »

— « أنا لم أصرّح لهم بالسفر بل أمَرْتُهم به ! »

فاستولت الدهشة على كل من الكولونل واللورد ، وتابع « بلود » كلامه :

— « أمرتهم بالذّهاب إلى جزيرة السُّلحفاة ، ليخبروا رفقائى المتفرقين فوق بقيّة أسطولى بأنى لن أعود إليهم. » فقال الكولونل وقد احمر وجهه واحتقن :

— « أتسمعُ يا سيّدى اللورد ؟ إن هذا العمل هو الخيانة العُظمى



بعينها ، ولستُ أدري كيف أقدمتَ يا سيدى على منحه براءة العفو وإنقاذه من المِشْنقة . » فقال « بلود » وقد بدأ ينفَدُ صبره :

ــ « ذهب هؤلاء الرجال إلى رفقائهم ، وهم ممن أبى أن ينخرط فى خدمة الملك "جاك" ، ولعل سيدى اللورد يذكر أننا استسلمنا مشترطين أن يكون الفردُ منا حرًّا فى اختيار الوجهة التى يؤثرها . » فقال اللورد فى خطر ووقار :

ــ « أجَلْ أذكرُ ذلك ، ولعلّى كنتُ مخطئاً فى قبول هذا الشرط . »

فقال « بلود » حانقاً :

ــ « كلاّ يا سيدى لم تكن مخطئاً ... إنما الخطأ أن يعيَّنَ مثل هذا الكولونل المغرم بشنْق العبيد فى منصب حاكم "الجامايك" بدلاً من تعيينه فى منصب الجلاّد ! »

فاحتجَّ اللورد على هذا الكلام ، ونهض الكولونل مُغضباً مهدِّداً وقال :

ــ « لئن ظفرتَ بعفو الملك ، إنك لن تنجو من المحكمة العسكرية التى ستحكم عليك بالشنق ، لإغرائك الرِّجال بهجر خدمة الملك . . . »

فالتفت « بلود » إلى اللورد « ويلد » وقال :

ــ « لقد وعدتنى يا سيدى بأن تجنّبنى المشْنقة . » فقال اللورد :

ــ « أجلْ ، ولكنَّ وعدى أصبح صَعبَ التحقيق بعد هذه التّهْمة الجديدة الموجّهة إليك . » .

وحيّا اللورد الرجلين وغادر الحجرة ، وهمّ « بلود » بأن ينصرف هو

أيضاً ، فقال الكولونل ضاحكاً ساخراً :

ــ « هيهاتَ هيهات ! فلن تغادر هذه الحجرة وأنت طليق السّراح فسوف يُقبَض عليك حالما تتخطّى عتبة الباب . . »

وجرى الكولونل إلى الباب ، ولكنّه ما كاد يخطو خطوةً واحدة حتى توقف مذعوراً ، فقد صوّب إليه «بلود» غدّارته ، وأنذره ليُفرِغنّ نيرانها فى أحشائه إذا هو لم يذعن لما يطلبه منه ، فهز الكولونل رأسه طائعاً مجيباً .

وتأبط « بلود » ذراع الكولونل ، وأخفى الغدارة تحت ردائه ، وطلب إليه أن يخرجا معاً ويوصله إلى سفينته ، وتوعّده بالقتل إن هو استنجد بأحد أو استغاث ، فأذعن الكولونل لمشيئة « بلود » مُكرهاً صاغراً ، ولشدّ ما دهش ضابط القلعة المكلّف بالقبض على « بلود » عندما رآه قد خرج يتأبّط ذراع الكولونل ويبادله النكات والضحك .

وكانت الآنسة « أرابلا » فى فناء القلعة ، فرأت عمّها و « بلود » مصطحبين ، فخفق قلبها سروراً ، وودت لو تعترض سبيل « بلود » وتعتذر إليه عما فرط منها ، وعن الجفوة التى قابلته بها ، فقد عرفت أمس من بعض البحّارة الذين حدّثتهم أن « بلود » لم يقتل « لوفسُّور » إلا دفاعاً عن النّفْس ، وإنقاذاً للفتاة « أوجيرون » وشقيقها .

ولم يكن حاكم الميناء بأقل دهشة لما رأى أن الكولونل قد ركب هو و « بلود » أحد القوارب ، وسارا به إلى سفينة « بلود » فصَعِدا إليها . وأبحرت السفينة بعد قليل وعلى ظهرها الكولونل . . .



١١

ابتعدت السّفينة عن الميناء، وأصبحت على بُعد خمسة أميال أو ستّة، فوقفها « بلود » قليلاً ، وأنزل منها زورقاً إلى الماء ، وأقبل على الكولونل يودّعه ويأمره بالنزول إلى الزورق والعودة إلى الميناء، فتنفس الكولونل الصُّعَداء وقد كان عُرْضةً للهواجس والخوف .

فلما استقر في الزّورق، حيّاه «بلود» وتمنى له عودةً حميدة وقال له :

— « هذه هي المرّة الثانية التي أضطرّ فيها يا سيّدي الكولونل ، إلى استخدامك رهينةً تدرأ عني الأخطار ، فحذار من المرة الثالثة ، فقد تكون وخيمة العاقبة عليك ! »

وفي إبّان هذه الحوادث، كانت أوربّا ميداناً للحروب التي شنّتْها

مطامع « لويس الرابع عشر » ، وكانت إنجلترا تعيش على فوّهة بركان ، وتخشى أن تندلع فيها ألسنة الحرب الأهلية ، فالشّعب كان برِماً ضَجِراً بمظالم الملك « جاك الثانى » .

وكانت السُّفن التى ترد على « الجامابيك » تحمل إليها أخبار البلاد الأوربيّة ، فعلم سكان « الجامابيك » فى شهر مارس من عام ١٦٨٩ أنّ « جيوم دورانج » قد قبل عرش إنجلترا وأنّ « جاك الثانى » قد التجأ إلى فرنسا . فضاق اللورد «ويد» والكولونل«بيشوب» ذرعاً بتلك الأنباء ، وأسْقِط على الأخص فى يد الكولونل عندما أبلغه الرئيس الجديد للوزارة أن إنجلترا فى حرب مع فرنسا ، وأنه قد عيّنَ أحد اللوردات حاكماً عامّاً لجزر « الأنتيل » ، وأن ذلك الحاكم العامّ سيصلُ قريباً إلى تلك الجُزُر متفقّداً مفتّشاً وسيبدأ بجزيرة « الجامابيك » .

فَهِمَ الكولونل أن سلطانه قد بدأ يأفل نجمه ، فأخذ يترقّبُ ماتأتيه به الأيام . أما اللورد «ويد» فقد كان يجهل أىّ مصير تُخَبِّئُه له الأقدار ، فأخذ هو كذلك يترقب حوادث الزّمان .

وَخطرَ له فى أثناء ذلك أن يتزوّج الآنسة «أرابلا » فإنه كان شديد الإعجاب بأخلاقها وذكائها ونُبْل نفسها ، فطلب يدها من عمّها فأجابه إلى ما طلب راضياً مسروراً ، معلّلاً النفس بأن تعود مياه الدولة إلى مجاريها ، فيستعيد شأنه ومَجْدَه ، مستعيناً بجاه اللورد ونفوذ أصدقائه .

ولقد كان اللورد صريحاً مع الكولونل عندما طلب منه يد ابنة أخيه فقد قال له فى جملة ما قال :

— « ولستُ أكتمك يا سيّدى الكولونل أنه قد يكون هناك عقبة تقوم دون تحقيق هذا الزواج . . . تلك العقبة هى الرُّبان "بلود" . »

فصاح الكولونل ،فى محدثه وقد كاد الغضب يخنقه :

— « ماذا تقول ؟ أأنت مجنونٌ يا لورد ؟ ! »

— « كلاّ لستُ بمجنون يا سيدى الكولونل ؛ ولكن يخيّلُ إلىّ أنّ ابنة شقيقك تحب الرُّبّان "بلود" » .

فازداد الكولونل سُخطاً وغضَباً ، كما ازداد حقداً على « بلود » فصاح :

— « سوف أنتزع من قلبها هذا الحبّ ... سوف أردها إلى الصواب. »

— « إن ابنة شقيقك يا سيدى الكولونل لا يؤثر فيها العنُف والشدّة ... إنها من أولئك الفتيات اللواتى يُخْلِصْنَ لمن أحببنَ كل الإخلاص ، فإن لم أكن مخطئاً فى ظنى فسوف تنتظره ما عاشت حتّى تزف إليه . »

— « لعلها تلتمس وجه الصواب إذا مات هذا المجرم اللعين ! »

— « لعلها ! . . . »

— « إن هذه الحرب بيننا وبين فرنسا ، تسمح لنا يا عزيزى اللورد بأن نهاجم جزيرة السُّلحفاة ، فإذا انتصرنا على القراصنة ، وأنزلنا بهم خسارةً فادحة ، وقبضنا على "بلود" علا شأنُنا فى عين الوزارة الجديدة ،

واصطدنا عُصفورين بحجَر . . . »

وكان الواجب يقضى على الكولونل بأن لا يُغادر « الجامايك » غير أن نداءَ الحقد أصمه عن سماع صوت الواجب ، فسار هو واللورد « ويد » على رأس الأسطول يبحثان سرًّا عن الرُّبان «بلود» ويتوخّيان فى الظاهر مهاجمة المستعمرات الفرنسية .

وقبل أن يجرِّد الكولونل تلك الحملة بثلاثة أشهر ، كان الرُّبان « بلود » قد وصل إلى جزيرة السُّلحفاة ، فاستقبله إخوانُه القُرْصان بالهتاف والتّهليل ، فرد على تحيتّهم بأحسن منها ، ولكنه كان حزيناً حتّى الموت ، وكانت كآبة فؤاده تلوح فى عينيه .

وبعد أن تبادل وإخوانه التحيات ، تركهم وقصد إلى مقصورته وخلا بنفسه فيها . أما صديقه الحميم «پت» فقد بقّى مع القرصان يَرْوِى لهم الروايات عن زعيمهم « بلود » ، ويزيّن سَرْدَه بكثير من أعمال البطولة والتمجيد ، فأخفى عنهم ما شاء أن يُخفِى من أمر الفتاة « أرابلا » ، وصوّر لهم قبول « بلود » براءة العفو ، ورِضاه بالانضمام إلى البحرية الإنجليزية أمراً أكْرِهَ عليه ريثما ينجو بمن كان معه من الرِّفاق ، وإلا فالمأزق الحرج الذى زجّتْهم به الأقدار ، ووقوعهم فى قبضة الكولونل «بيشوب» كان حقيقاً أن ينصبَ لهم المشانق جميعاً . . .

خدّرَ « پت » أعصاب الرِّفاق بمثل تلك الأقاويل ، فازدادوا إعجاباً

بالرُّبّان « بلود » ولام كثيرٌ منهم أنفسهم على أنهم هجروا ذلك الزعيم النبيل العظيم ولم يبقوا معه . ثمّ انصرف « پت » عنهم وذهب يلقى « بلود » فى مقصورته ، فألفاه يترنح من السُّكْر فدهش وقال :

— « "بلود" ! ما هذا ! ما بك ؟ »

فقهقه « بلود » ضاحكاً وقال :

— « إنها خمر "الجامايياك" ، إنها ألذُّ خمر فى العالم . . . خذ الزجاجة واكْرع منها ما شئت . . . »

فنحّى « پت » عنه الزجاجة وقصّ على « بلود » ما رواه للرّفاق ، فشكره « بلود » وهو يتلعثم من السكر وقال :

— « وعلام كلّ هذا ؟ . . . لقد أردتَ أن تنقذنى من قدْح القادحين ولكن فى غير طائل ، فقد عزمتُ على أن أهجر حياة القرصنة . »

— « سأحدثك فى هذا عندما تفيق من السُّكر ، ولكن لاتنس الرواية التى رويتها للرّفاق عنك ، واذكر الخطر الجسيم الذى تتعرض له لو عرفوا الحقيقة . »

ومضت الأيام بعد ذلك و « بلود » مستسلمٌ إلى السُّكر ، ولا يكفّ عن الشراب ليلَ نهار ، فعرف « پت » أن صديقه وزعيمه يريد أن يغرق أشجانه فى كؤوس الشراب ، فرثى لحاله ولعن ذلك الحبّ الذى ملكَ على « بلود » جوانحه ، ورجا أن يشفى الزمان ذلك الجرح البليغ .



ودخل « پت » يوماً على « بلود » فهاله أن يراه على حال زرية مهملة في ملبسه ومظهره، فجمع شجاعته وقال له :

ـ « أمِنَ الصواب أن تقضي حياتك في خَلْوة قاتلة لسبب فتاة أعرضت عنك ؟! لئن كنت حقًّا تحبُّها فلماذا لا تذهب وتختطفها ؟»

نهض « بلود » وكان شاحبَ اللون مُخيفَ النّظرات وقال :

ـ «على رِسْلِكَ يا "پت" واخرج من هذه الغرفة في الحال، وإلاّ قذفتُ بك من هذه النافذة ! » فخرج « پت » حزيناً .

وضاق القرصان بتلك الحال، وصمّموا على التمرُّد ولو أدّى بهم الأمر إلى قتل زعيمهم الرُّبّان « بلود » ، غير أن الأقدار السمحة الكريمة أنقذته منهم إنقاذاً عجيباً .

في صباح أحد الأيام قدِم إلى السّفينة « أرابلا» حاكم جزيرة السُّلحفاة ومعه حاكم جزيرة «إسپنيولا» فرحّب « بلود » بصديقه المسيو « أوجيرون » وبرفيقه فقال هذا :

ـ « إن تحت إمرتك يا سيّدي أربع سفن وثمانمائة رجل، فهل تقبل أن تخدم ملك فرنسا في الحرب التي أعلنها على إسبانيا . »

وكأنما هذا الكلام قد انتزع « بلود » من سهوه وجموده فقال :

ـ « أتعرِضُ علينا أن نجند أنفسنا لخدمة ملك فرنسا ؟ »

ـ « نعم يا سيدي . »

رضى « بلود » بذلك العرض لأنه لا يمتّ إلى القرصنة بسبب .

وبعد فترة قضاها « بلود » فى الاستعداد للرحيل ، أقلعت السفن به وبرفاقه ، ورست فى ميناء « جواف » فدعى « بلود » إلى المثول بين يدى أمير الأساطيل الفرنسية ومجلسه الحربى ، فلبّى الدعوة وسار إلى المجلس يحيط به نفرٌ من أعوانه ، فازدراهم أمير الأساطيل ، وأنِفَ حتى من محادثتهم لِما رآهم عليه جميعاً من قذارةِ الملبس والمظهر . وعندما دعى «بلود» إلى المجلس مرة أخرى ، كاد أمير الأساطيل لا يعرفه فقد رأى أمامه رجلاً متأنقاً كلّ التأنّقِ لابساً أفخر الملابس والأردية من المخمل والحرير .

واشترك « بلود » مع مجلس أركان الحرب فى دراسة خطة الهجوم على الإسبانيين ، والاستيلاء على مدينة « قرطاجنة » على ساحل « كولومبيا » وكان صاحب الخطة الأميرال نفسه ، فعارضه « بلود » وبيّنَ له خطل ذلك الرأى وتلك الخُطّة ، واقترح أن يستولى الفرنسيون أولا على القسم الإسبانى من جزيرة « إسپنيولا » ثم يذهبوا إلى مدينة « قرطاجنة » البعيدة وإلاّ فسيكون الإسبان أسْبَقَ إلى احتلال القسم الفرنسى من الجزيرة ، فعز على الأميرال أن يعارضه « بلود » فى خطته ، فصمم عليها ، وسارت السُّفن إلى ذلك الهدف البعيد القاصى ، وبعد يومين من سفرها خرج الكولونل « بيشوب » بسُفنه يقصد جزيرة السّلحفاة .



١٢

اضطُرَّ الرُّبّان «بلود» إلى الإذعان لمشيئة الأميرال الفرنسى الذى آثَرَ أن يستولى على مدينة « قرطاجنّة» وأن يجعلها هدفه الأول ، فسارت سفن « بلود » الأربع إلى ذلك الهدف ، تتبعها أربع سفن أخرى من الأسطول الفرنسى حتّى إذا كانت جميع تلك السفن على بضعة أميالٍ من المدينة ، جمع الأميرال أركان حربه ، ودعا معهم الرُّبّان « بلود » وكبار معاونيه ، وطلب إليهم جميعاً أن يستمعوا للخُطّة التى وضعها فى احتلال المدينة وما جاورها . شرح الأميرال تلك الخُطّة فلم تعجب « بلود » فلما عُهد إليه فى تنفيذها صاح فيه قائلا :

— « لقد تبعناك على كُرْهٍ منا إلى غزو هذه المدينة ، فى حين كانت

الحكمة تقضى بالاستيلاء على ما يملكه الإسبان من جزر ، فخطتك هذه التى بينتها لنا ، إنما هى مجزرة لاطائل تحتها ... » فقال الأميرال محتداً:

ــ « أنت هنا يا سيد "بلود" لتسمع الأوامر وتنفذها لا لتناقشها ! »

ــ « فعلامَ إذن ضممتنى إلى مجلسك الحربى ، واستوضحتنى الرأى فيما تقول ! »

ــ « كفى يا حضرة الرُّبان .. . هذه أوامرى إليك : تستخدم سفنك ورجالك وتستولى على المدينة من مدخل الميناء . »

ــ « وهذه القلاع التى تحمى المدخل ؟ »

ــ « أسكتها بمدافع سفنك . »

وخرج « بلود » وهو لا يدرى أمجنون هذا الأميرال أم رجل يريد أن يتخلص منه ومن رجاله ، فأمر بزجهم وزج سفنهم فى أتون من النار .

وكان « بلود » يعرف مدينة « قرطاجَنَّة » ويعرف كل ما يحيط بها من مخابئ ومنعرجات ، فصمم أن يستولى على المدينة هو ورجاله ، ولكن بغير الخطة التى أمره الأميرال باتباعها .

وكانت خُطّة « بلود » تقوم على أن ينزل برجاله إلى البر بعيداً عن الميناء ، ويهاجم القلاع من الخلف ، فتم له ما أراد ، وانتصر على الإسبان انتصاراً باهراً ، ومهد للأسطول الفرنسى سبيل الدخول إلى الميناء ، فدخلها ظافراً ، ونزل الجند إلى المدينة فأعملوا فيها السلب والنهب والتدمير ، حتى

إنّ « بلود » لم يحجم عن أن يقول للأميرال :

ـ « لستُ أدرى يا سيدى الأميرال مَنْ منا هو القرصان ، أنا وإخوانى أم أنت وجنودك ؟ »

ولقد انجلت المعارك البحريّة التى نشبت بين الأسطول والقلاع ، عن غرق بعض السفن ، فلم ينج من سفن « بلود » إلا « أرابلا » وسفينة أخرى ، وكذلك لم يبق إلا سفينتان من السفن الفرنسيّة الأربع .

وثارت وساوس الجشَع فى نفس الأميرال الفرنسى ، فاغتنم فرصة انتشار الظلام فى إحدى الليالى القاتمة وفرّ بسفينته .

وعندما طلع الصباح ، وعلم « بلود » أن الأميرال قد فرّ بالكنوز التى سلبها من المدينة ، قرّر قراره على اللحاق به ، فقضى يومين وليلتين يجوبُ البحار ، ويبحث عن غريمه فما وَجدَ له أثراً .

وفى اليوم الثالث حوّل « بلود » اتّجاه السير إلى جزُر « الأنتيل » فخبّت سفينتاه إليها فى أقصى سرعة تستطيعانها ، وبينما كان « بلود » يتمشى فوق سطح السفينة « أرابلا » لاحت له فى أقصى الأفق سفينة تضطرب فى مهبّ الريح فمازال يمعن النظر إليها حتى اقترب منها فرآها سفينة إنجليزية تكاد تبتلعها الأمواج ، وقد نزل منها بحارتها وركبوا قوارب النجاة ، فجدّ « بلود » فى الوصول إلى السفينة الغارقة ، فانتشل رجالها ووزّعهم بين سفينتيه وكان بين ركابها رجلان عظيمان ، أحدهما الحاكم

الجديد بجزر « الأنتيل » وثانيهما أميرال أسطولها ، فلما عرفا أنّ منقذهما هو الرُّبَّان « بلود » أنِسا إليه، وكانا قد سمِعا الكثير عن آيات شجاعته وبطولته ، كما كانا قد عرَفا أن الظُّلم والقسوة والفوْضى هى التى دفعته إلى حياة القرصنة ، فأغرياه بهجر هذه الحياة المضطربة ، والانضواء تحت لواء الملك «جيّوم دورانج» . سمع «بلود» هذا الاسم فدهش له وقال :

ــ « ومَنْ يكون هذا الملك ؟» فقال الحاكم الجديد لجزر « الأنتيل» :

ــ « إنه ملك إنجلترا الجديد، تسنّم عرشها منذ نحو شهرين فكيف لم تسمع به ؟ »

ــ « لقد قضيتُ ثلاثة أشهر أجولُ فى البحار ، فما وقفتُ على نبأ من أنباء أوربا . »

وكان « بلود » قد عرَف كذلك من ضيفيه ، أن سفينتين فرنسيتين قد هاجمتا سفينتهما الصغيرة غير المسلّحة ، فلما رأى الأميرال الفرنسى أنها خاوية الوِفاض، تركها وشأنها بعد أن صبّ عليها ألسنة اللهب والنّار غَدْراً وخيانة . واستأنف أحدهما الحديث وقال :

ــ « وأخوَف ما نخافه أن يكون هذا الأميرال الفرنسى قد اتّجه بسفينتيه الكبيرتين إلى ميناء " بور رويال " واستولى على "الجامايك". »

فقال « بلود » :

ــ « ولكن هناك أسطول " الجامايك " فهو كفيلٌ بأن يردّه على أعقابه خاسراً . »

ــ « كنا أمس فى ذلك الميناء ، فلم نجد فيه أيّة سفينة من سفن الأسطول ، وقيل لنا إن الحاكم الكولونل " بيشوب" قد ذهب بالأسطول ليغزو جزيرة السّلحفاة الفرنسية ، ولسنا ندرى كيف يترك الحاكم مقرّه فى مثل هذه الأيام العصيبة ويعرّض الجزيرة الكبرى للغزو ، ويجرّدها من السفن التى تحميها ؟ » وقال رفيقه :

ــ « إنّه أحد صنائع الملك " جاك " فلابُدّ من عزله ، بل لابد من شنقه وتنصيب غيره حاكماً على "الجامايك" . »

وكانت السفينتان قد اقتربتا من ميناء « بور رويال » ، فلاحت الرّايات الفرنسية خفاقة على سفينتين فيه ، فعلم القوم أن الميناء قد احتلّه الفرنسيون ، وعرف « بلود » أن إحداهما هى سفينة الأميرال الفرنسى الذى هرب بكنوز « قرطاجنّة » ، فعزم على قتاله واستخلاص المدينة من قبضته .

ولقد كان من رأى الحاكم الجديد لجزر « الأنتيل » ، ورأى أميرال أسطولها ، أن كفة « بلود » غير راجحة فى ذلك القتال الذى يزمعه ، فالسّفينتان الفرنسيتان أضخمُ هيكلاً ، وأكثرُ عدداً مدافع من سفينتى « بلود » ، وكان من رأيهما أيضاً أن يتريّثا حتى يلتقيا بأسطول «الجامايك» فيستطيعا عندئذ القضاء على السفينتين الفرنسيتين قضاءً مُبْرَماً .

ولكن « بلود » رأى غير هذا الرأى ، وأبدى للرجلين أن المعارك

البحرية لا تقومُ على وفرة المدافع فقط ، وأن بينه وبين ذلك الأميرال الفرنسى حساباً يجب أن يسوِّيه .

ونشط « بلود » إلى أعوانه ، فأنهى إليهم ما أراد أن ينهى من أوامر ونصائح ، وقاد سفينته إلى الميناء ، وخفَّت السَّفينتان الفرنسيتان إلى استقباله وهما تُطلِقان قذائف النار والحديد ، ونَشِبتْ بين السفن الأربع معركةٌ هائلة تُشيِّبُ لهولها الولدان ، وأظهر « بلود » من البراعة فى القتال وقيادة الرِّجال ما أدهش ضيفيه العظيمين ، ولاسيَّما عندما التحمت السُّفن ، ووثب « بلود » ورجاله إلى الأعداء يُعمِلون فيهم الطَّعْن والضَّرْب .

وانجلت المعركة عن انتصارٍ باهرٍ أحرزه « بلود » ورجاله ، فأعادوا الجزيرة إلى أصحابها ، وأنزلوا الرايات الفرنسية التى كانت تخفق فوق المبانى والمنْشآت ، وقدَّم « بلود » إلى حاكم جزر « الأنتيل » كل ما كان فى السفينتين الفرنسيتين من كنوز وأموال ، وقال إنه يَعُدُّ نفسه ويعُدُّ رجاله فى خدمة الملك « جيُّوم دورانج » ملك إنجلترا ، فهذه الأسْلابُ إنما هى ملك الدولة .

ونزل الرجلان العظيمان إلى البرّ ، وأشارا إلى « بلود » أن يصحبهما فى نَفَرٍ من كبار أعوانه إلى قصر حاكم المدينة ، فلما وصلت تلك الكوكبة من الرِّجال إلى رصيف الميناء ، التفت « بلود» إلى جهة البحر ، ومَسَح دمعتين كبيرتين انسكَبتا على خده ... ذلك أنه رأى سفينته المحبوبة

« أرابلا » قد غاصت فى أعماق البحر ، بعد العَطَب الذى أصيبتْ به فى المعركة. وشاء حاكم جزر « الأنتيل » أن يكافئ « بلود » على شجاعته وإخلاصه ، فعينه حاكماً على « الجامايك » ، فتردَّد «بلود» أوّلاً فى القَبُول ، ثم أذعن فى آخر الأمر .

وشاء حاكم جزر « الأنتيل » أن يكافئ أيضاً رجال « بلود » فأعطاهم عُشْرَ الأسلاب التى استولوا عليها من السفينتين الفرنسيتين ، وخيّرهم بين الانضمام إلى البحريّة الإنجليزيّة ، أو الإقامة حيث يشاؤون ، فانضمُّوا كلّهم إلى البحرية .

ولما طالت غيبةُ أسطول « الأنتيل » استَقَلّ أميرال ذلك الأسطول السفينة الوحيدة الباقية من سفن « بلود » ، ومضى هو والحاكم العام الجديد يزوران جزر « الأنتيل » ويتفقّدان أحوالها ، وأطلقا يد « بلود » فى أمر الكولونل « بيشوب » حاكم « الجامايك » المخلوع ، فإن شاء شَنَقَهُ ، وإن شاء أغْضَى عنه . وذاع فى جميع أنحاء المدينة أمْر خلعِ الكولونل ، فشَمِتَ به الشّامتون ، واغتبط المغتبطون .

وبينما كان حاكم « الجامايك » الجديد أى الرُّبان « بلود » فى مكتبه ذات يوم وهو يُصَرِّف أمورَ الجزيرة ، إذ دخل عليه الحاجبُ وأخبره أن الآنسة « أرابلا بيشوب » تستأذن فى الدُّخول ، فاصفرّ وجه « بلود » قليلاً وحَدّق طويلاً فى وجه حاجبه الأسود صامتاً ساكناً ، ثمّ هز رأسه

علامةَ السّماحِ لها بالدّخول .

وما هى إلا ثوان معدودات ، حتى كانت الآنسة « أرابلا » تتخطّى عتبة الباب ، وتدخل إلى مكتب حاكم « الجامايك » الجديد ، وهى ممتقعةُ اللون ، مضطربةُ الفؤاد ، فنهض « بلود » إلى استقبالها فقالت له :

— « علمتُ يا سيّدى الحاكم أن مصير عمّى الكولونل "بيشوب" قد وضع فى يديك . . . »

— « اطمئنى بالاً يا آنسة ، فهما أساءَ إلىّ عمك فلن أحذو حَذْوَه ، إن الحاكم العام يريدنى أن أقسو فى معاملته ، ولكننى سأكتفى بأن أرسله إلى مزارعه ، وأطلب إليه أن يُحسن معاملة عُماله وعبيده . . . »

فتهلّل وجه « أرابلا » ، وخطت خطوتين إلى « بلود » وقالت :

— « يسرُّنى أن أسمعك تتحدث بمثل هذا الحديث ، وأن أراك فى المنصب الذى أنت له أهْل . » ومدّت إليه يدَها محيّية فقال :

— « هل لى أن أضع هذه اليد الكريمة فى يد قرصانٍ ولصّ ؟ »

فحاولت أن تبتسم وقالت :

— « ما عُدْتَ بالقرصان ولا اللّص .. . ولكن ألن تَنْسى هذه العبارة ؟ »

— « ليس فى مقدورى نسيانُها ولعلّ الأيّام . . . »

فنظرت إليه طويلاً ، ثم مدت يدها ثانية لتصافحه وقالت :

— « إنّى راحلة يا سيدى الحاكم "بلود" وسأصحب عمى إلى مزارعه ،

ولعلّنا لن نلتقى بعد اليوم ، فلنفترق صديقين ... لقد أسأت فيك الظنّ فعذراً جميلاً . . . »

وكان « بلود » ساهماً واجماً كمن أفاق من حلم ، فأمسك بتلك اليد المبسوطة إليه وقال :

— « وهل يصحبك اللورد " ويد " إلى مزارع عمّك ؟ »

فقالت فى لهجة حازمة :

— « أغلب الظنّ أنّ اللورد سيعود إلى إنجلترا ، فما من سببٍ يدعوه إلى البقاء معنا فى هذه الدّيار . »

وأحسّ « بلود » بأن قلبه سيثِبُ من صدره فرحاً وسروراً ، وسحبت « أرابلا » يدها من يده وقالت وهى تتجه إلى الباب :

— « أستودعك الله يا سيّدى الحاكم ! »

وكان « بلود » أسرع إلى الباب منها ، وقد فتح ذراعيه ليضمها إلى صدره ، فاحمر وجهها وقالت :

— « طريقة قرصان . . . دعنى يا سيّدى أخرج . »

— « "أرابلا" أحقّاً تريدين أن أدعك تنصرفين ، وأن لا نتقابل أبداً بعد اليوم ؟ إنّ بقائى فى هذه البلاد لن يحلو لى إلا إذا كنت إلى جانبى . . . ولكن لماذا تبكين يا عزيزتى "أرابلا" ؟ بماذا أسأت إليك ؟ »

— « ظننتُ أنك لن تفصح لى فى يوم من الأيام عن حبّك ؟ »

ــ « ذلك أني علمتُ أن اللورد "لويد" قد خطبك إلى عمّك . »

ــ « ما عرفتُ إلاّك حبيباً يا "بلود". »

وفي تلك اللحظة كان الكولونل « بيشوب » قد عاد بأسطول « الأنتيل » فلم يكَدْ ينزلُ من سفينته بصحبة اللورد «ويلد» ويستقل معه الزورق، ويصل إلى الرصيف ، حتى تقدّم منه أحد الضباط وقال له :

ــ « يا سيدى الكولونل " بيشوب"! باسم الدولة أقبض عليك ! »

فاحتقن وجه الكولونل وصاح فى الضابط :

ــ « أتقبضُ علىّ أنا ؟ ! »

ــ « بأمر حاكم "الجامايك ! " »

ــ « أمجنونٌ أنت يا هذا ؟ أنا حاكم " الجامايك ! " »

ــ « كنتَ حاكم " الجامايك" ... ولكن الحاكم العام لجزر " الأنتيل" وقد رَحلَ منذ قريب يتفقد الجُزُر ، قد عاب عليك غيابَك عن المدينة فى هذا الوقت فخلعك من منصبك ، وربما اتّهمك بالخيانة العظمى لأنك من أعوان الملك "جاك" فلن يكون مصيرُك بعد ذلك غير الشنْق . . . »

فقال الكولونل وقد بدأ العرق البارد يتصبب من جبينه :

ــ « أأتّهم بالخيانة العظمى وأشْنَق ؟ !» فقال الضابط :

ــ « أجلْ يا سيدى الكولونل. ألم تعرف أنّ الملك "جاك" قد هرب من إنجلترا والتجأ إلى فرنسا ؟ ! أما علمتَ أن الملك "جيوم دورانج "

هو الذى استوى على عرش إنجلترا ؟ ! أوَ ما بلّغك رئيس الوزراء بكلّ ذلك ، وأنْهىَ إليك أن الحاكم العام الجديد بجزر «الأنتيل» سوف يصلُ إلينا عما قريب ، متفقداً للجزر وأحوالها ، فلم تحفِل به وذهبتَ بالأسطول تتصيَّد الهباء المنثور ، ثم عُدْتَ مخفقاً فارغ اليدين ، فإن لم يكن هذا هو الخيانة العظمى فماذا يكون ؟ ! »

وكان اللورد « ويد » قد لزم الصمت حتّى تلك الساعة ، فاقترب من الضّابط وقال :

— « أمعك أمرٌ باعتقالى أنا أيضاً يا سيدى الضّابط ؟ إنى رهن إشارتك . » فقال الضابط :

— « كلا يا سيدى اللورد فأنت حرٌّ طليق . »

ثم التفت الضابط إلى الكولونل وقال :

— « هل يتفضل سيدى الكولونل فيتبعنى إلى قصر الحاكم ، فهو صاحب القول الفصل فى مصيرك . »

فودّع الكولونل صديقه اللورد ، ومشى صاغراً إلى قصر الحاكم ، وكان « بلود » فى تلك الساعة جالساً فى مكتبه إلى « أرابلا » مستغرقاً معها فى حديث شهِيٍّ مُمْتع ، استعرضا فيه حياتهما فى سنوات ثلاث مرّت عليهما مملوءةً بالحوادث الجِسام ، وتذاكرا فى ذلك الحديث كيف نشأ حبّهما ونما وترعرع .



وصحا الحبيبان من غفوتهما اللذيذة على صوت الحاجب يُعلن وصول الكولونل « بيشوب » ، فنهضت « أرابلا » ومشتْ إلى الباب المفضى إلى الحديقة وخرجت منه وهى تقول :

ــ « كنْ رفيقاً به ورحيماً يا عزيزى " بلود " . »

وأذِن « بلود » للكولونل «بيشوب» بالدخول، فدخل وحده يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى ، وهو مطأطئ الرأس مضطربَ الجنان ، حتّى إذا صار فى وسط الغرفة ، رفع رأسه لينظر إلى الحاكم الجديد مستعطِفاً متذلِّلاً ، فما كاد يراه حتّى تراجع مذعوراً مدهوشاً وهو يصيح :

ــ « الرُّبّان " بلود " ! ! »

وحانتْ منه التفاتة إلى الباب المؤدِّى إلى الحديقة فرآه قد فُتح ودخلتْ منه ابنةُ أخيه «أرابلا» بسّامة الثَّغْر والعينين ، فكاد يُصعَق ويُقضى عليه من الدهَش . . .

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٨٥٩٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3839 - 2	ISBN

١ / ٩٢ / ١٨١
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٨٣٣٨١٨